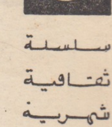
كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الإسلام
بين العلم والمدنية

الشيخ محمد عبده

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٨٥ – ربيع الاول ١٤٠٣ – يناير ١٩٨٣

No. 385 — January 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشــة :
الفنانة سميحة حسنين

الإسلام

بين العلم والمدنية

•

بقلم

الأستاذ الإمام الشيخ
محمد عبده

•

دار الهلال

تقــــديم

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم بعنوان : « الاسلام بين العــلم والمدنية » يشتمل على طائفــة من البحوث المتعلقة بالدين الاسلامى وموقفه من المدنية الحــديثة ، وبيان المعانى الانسانية والاهداف الاجتماعية والعمرانية فى هذا الدين الحنيف وما يتفق مع الدين المسيحى من مثل عليا ، وما يختلف معه من معــاملات بشرية لا تمس جوهر التوحيد وعبادة الله سبحانه وتعالى ، كما يشتمل على دفاع الاستاذ الامام عن الاســـلام فى المزاعم التى الصقها البعض به جهــلا أو خطــأ فى البحث والرأى والتقدير كمزاعم مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى عهده الذى أراد أن يخلط السياسة بالدين فقد كتب مقالين عن الاسلام والمسلمين أملاهما عليه الفرض ، ودفعه اليهما تشويه الحقائق .

جمعية التقريب بين الاسلام والمسيحية

ولقد كان جهاد الاستاذ الامام فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى سبيل الاسلام واصلاح المسلمين

حافزا للكتابة والخطابة والحديث عن شئون هذا الدين وعلاقته بالدين المسيحى ، خصوصا ان بين العرب والمسلمين فى الاقطار الاسلامية والعربية عددا غير قليل من المسيحيين الذين يعيشون فى وئام تام مع اخوانهم المسلمين فى هذه الاقطار ، مما دفع بعض كبراء المسلمين والمسيحيين للدعوة الى التقريب بين الدين الاسلامى والدين المسيحى . وقد عقد الاستاذ الامام اجتماعا فى بيروت بعد عودته من باريس وتعطيل جريدة العروة الوثقى دعا اليه بير زاده ، « وعارف أبى تراب » تابع السيد جمال الدين الافغانى ، وجمال بك نجل رامز بك التركى قاضى بيروت وميرزا باقر ، وطائفة من أصدقائه المسيحيين والمسلمين ، وقد الفوا جمعية سياسية دينية سرية باسم « التقريب بين الاديان السماوية » تعمل لازالة الشقاق بين أهلها ، والتعاون على محو الاستعمار من الشرق ، وتعريف الافرنج بحقيقة الاسلام من أقرب الطرق ، وقد انضم الى هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية فى الآستانة وبعض الانجليز . وكان من أعضائها من رجال الدين فى لندن « القس اسحاق تيلر » بل كان هو من دعاتها فى انجلترا . كما انضم اليها « مستر جى دبليو لينتز » مفتش المدارس بالهند . وكان الاستاذ الامام رئيسها وصاحب الرأى فى موضوعها ونظامها ، وكان ميرزا باقر هو الامين العام لهذه الجمعية .

انجليزيان
يدعوان لتوحيد الاسلام والمسيحية

وقد كتب مستر جي دبليو لينتز فى ذلك الحين مقالا بجريدة الديلى تلغراف بعدد ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ بعنوان : « الاسلام والمدارس المحمدية » ذكر فى أوله أنه أتيح له تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم فى مكتب اسلامى بالآستانة قبل حرب القرم ، وانه فتش مئات المدارس المحمدية فى الهند ، ووصلت اليه الوف من الاخبار عن مدارس أخرى ، وهو بذلك يشهد بأن ما أشيع فى أوربا عن المكاتب الاسلامية انها « مغارات اثم » بهتان لا يصح أن يقبله عاقل أبدا ، فان الاجتماعات العائلية والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التى أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سياج أمين للمحافظة بينهم على الاخلاق والآداب . وذم المدارس التى أنشأتها الدولة الانجليزية فى الهند وتقصيرها فى تعليم الدين الاسلامى . ثم قال :

« أما السؤال الاوسع فى الفرق بين المسيحية والاسلام ، وكونهما أداة لنشر التمدن ، فانى أقول فى صراحة ان من لا يعرف اللسان العربى لا يستطيع أن يعرف أن أصول الدين الاسلامى أشد وأقوى ارتباطا بقلوب المسلمين فى معيشتهم اليومية مما هو ، لسوء الحظ ، للمسيحية فى قلوب المسيحيين ، واذا كان الامر كذلك ، فلا حجة عندنا ونحن نعاشر المسلمين بأن نترك التقريب بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الأمتين !

« المسلمون يعتقد ان اليهود والنصارى هم أهل

الـكتاب ، أى عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه ، معـــاهدا اياه انه مؤمن بهذه الكتب . القـــرآن يأمر بصيانة المســاجد والكنائس والبيع التى يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهـــاد المؤمن . ويسمى عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة مقبولتان عند المسلمين بمعنى لا يخالف العقـــــــائد المعتمدة عند المسيحيين .. » .

ثم قال فى النهاية : « وانى لا أشــك فى أنه يجب الاتحاد بين الاسلام والمسيحية لا من الوجهـــة الدينية فقط ، بل من الوجهة السياسية أيضا !

أما القس اسحاق تيلر ، فقد كتب عدة مقالات فى معنى التقريب بين المسيحية والاســـلام فى الجرائد الانجليزية ، كما ألقى عدة خطب فى هذا الموضوع ، جاء فى احداها ان بعض رؤســاء الـكنائس ابتدعوا فى المسيحية موضوعات خيالية كعبادة القـديسين والملائكة والشهداء مما ينافى تعاليم المسيحة ، وقد قضى الاسلام عند ظهوره على عبادة الاوثان والملائكة ، واظهر الاحكام الاساسية للدين ، وهى توحيد الله وتعظيمه ، وارشد الناس الى الاخوة الصحيحة والحقائق الاساسية للطبيعة البشرية . ثم تكلم عن تعـدد الزوجات الذى كان فاشيا فى كثير من الامم قبل الاسلام بغير حد ، وتنظيم الاسلام له وتخفيفه من شره ، واقامته لكل امراة قيما شرعيا عليها ، فانقذ البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية الســائدة فى أوربا . وهى أعظم شناعة من تعـدد الزوجات . وقال :

« ان الاسلام حرم السكر ، والقمار وألبغاء . وهى ثلاث لعنات تهلك البلاد الاوربية والامريكية . ويجب علينا أن نعلم ان الدين الاسلامى لا يناقض الدين المسيحى ، بل يتفق معه فى محاربة هذه الفواحش ، وفى عبادة الله الواحد . وهو صدى لايمان ابراهيم ، والمسلمون يؤمنون بأن ابراهيم أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول الله . ولسيدنا عيسى مقام جليل فى الاربعة » ثم قال : « الاسلام قريب جدا من المسيحية، والمسلمون كأنهم مسيحيون ، فتعالوا بنا نساعدهم على الكمال فى دينهم . ولا نسعى عبثا لابطاله . وسنجد فى الاسلام مسيحية ، ونجد محمدا آخذا بعضد المسيح فى دينه » .

وقد ظلت جمعية التقريب بين الاديان نشيطة فى ذلك الحين حتى بعد عودة الامام من منفاه الى مصر ، بل كان يغذيها بمقالاته فى الاسلام وحالة المسلمين ، وفى الديانة المسيحية وحالة المسيحية ، وما يجب أن يكون عليه الفريقان من اتفاق واتحاد فى سبيل الخير العام . ولقد كان دعاة التقريب من الانجليز يشوب دعوتهم بعض الاغراض السياسية لتوطيد النفوذ البريطانى فى الشرق الاسلامى ، ولكن مما لا شك فيه إنهم أفادوا فى الدعاية للاسلام وفى تخفيف حالة التوتر والتعصب التقليدى بين الفريقين ، وفى تطور أفكار المسيحيين وتنويرها بالنسبة لتعاليم الدين المحمدى ، وما جاء به محمد من

مبادىء سامية ، وسعت من رقعة المساحات الشاسعة والاقطار الكثيرة التى فتحها الاسلام ، وأقام فيها مساجده الى جانب الكنائس التى يعبد فيها الله ، كما يعبد فى هذه المساجد ، والتى يقف فيها المسيحيون امام الله كما يقف المسلمون فى مساجدهم متوجهين اليه بقلوبهم وأرواحهم لا يعرفون الها غيره ، ولا يعبدون ربا سواه ، وهم عنده جميعا سواء .

كتاب الهلال

الإسلام والمسلمون .

الانسان عالم صناعى

((ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد))

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه ، بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه ، فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وبيد وحضارة صنيعة أعماله ، أقواته من معالجة الارض بالزراعة ، أو قيامه على الماشية ، وسرابيله وما يقيه الحر والبرد والوجى من عمل يديه نسجا أو خصفا ، وأكتانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره ، وجميع ما يتفنمه فيه من دواعى ترفه ونعيمه انما هى صور أعماله ومجالى أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط كفيه للطبيعة ، ليستجديها نفسا من حياة لشحت به عليه بل دفعته الى هاوية العدم، وهو فى صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده ، فكما بعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل وليقتدر أن يعمل ، فصنعته أيضا من صنعه ، فهو فى جميع شئونه الحيوية عالم

صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة بعيد عن آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه في هذه الحالة وخذ طريقا من النظر الى احواله النفسية ، من الادراك والتعقل والاخلاص والملكات والانفعالات الروحية ، تجده فيها أيضا عالما صناعيا ، شجاعته و جبنته ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعا تابع لما يصادفه في تربيته الاولى وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم مرامي افكاره ومناهج تعقله ومذاهب ميله ومطامح رغباته ونزوعه الى الاسرار الالهية أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية وعنايته باكتشافه الحقيقة في كل شيء أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والامهات والاقوام والعشائر والمخالطون ، أما هو المولد والمربى ونوع المزاج وشلل الدماغ وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا اثر لها في الاعراض النفسية والصفات الروحانية ، الا ما يكون الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الاثر ، فان التربية وما ينطبع في النفس من احوال المعاشرين وافكار المثقفين تذهب به وكأن لم يكن اودع في الطبع . نعم ان أفكارا تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين ويظن ان هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أنه ثمرة ما غرس ونتيجة

ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعا - فالانسان فى عقله وصفات روحه عالم صناعى .

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء ، ولكن هل تذكر ، مع هذا ، ان الاعمال البدنية ، انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وان الروح هى السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتـــاج فيه الى تذكير لانه مما لا يغـرب عن الاذهان ، انما قبل الدخول فى موضوعنا أقول كلمـة حق فى الدين ، ولا أظن منكرا يجحدها .

ان الدين وضع الهى ومعلمه والداعى اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين والمنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ،ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عنـد جميع الامم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الافئـدة وتصطبغ النفوس بعقـائده وما يتبعها من الملكات والعـــادات وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها الى ما تدبر به بدنها ، وكأنما الانسان فى نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ، ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحـدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال .

وبعد فموضوع الديانة المسيحية والديانة الاسـلامية بحث طويل الذيل ، وانما نأتى به على اجمال ينبئك عن تفصيل .

الديانة المسيحية

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة فى كل شيء ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهجرها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية، ومن وصايا الانجيل : « من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر » . ومن أخباره ان الملوك انما ولايتهم على الاجساد ، وهى فانية ، والولاية الحقيقية الباقية على الارواح وهى لله وحده . فمن يقف على مبانى هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة ان لكل خيال أثرا فى الارادة يتبعه حركة فى البدن على حسبه ، يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمى المنتسبين فى عقائدهم اليه ، فهم يتسابقون فى المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد فى استيفاء لذاتها ويسارعون فى افتتاح الممالك والتغلب على الاقطار الشائعة ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون الحرب ، ويبدعون فى اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم فى بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون فى ترتيب الجيوش وتدبير سوقها فى ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم فى احكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكرى من أوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها .

الديانة الاسلامية

أما الديانة الاسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلبة والشوكة والافتتاح والعـدة ورفض كل قـانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر فى أصول هـذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحـكم حكما لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والـكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها . ومن تأمل فى آية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها والسعى اليها بقدر الطـاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعـة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ ان الشرع الاسلامى حرم المراهنة الا فى السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليهـا ، ولـكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها وليست لهم عنـاية بالبراعة فى فنون القتال ، ولا فى اختراع الآلات . حتى فاقتهم الامم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنـون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لهـا

ورضخوا لاحكامها (١) ومن وازن بين الديانتين حار فى فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الاولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين فى ديار الاولين قبل وجودها عند الآخرين؟ وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ، لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين فى نفوس المستمسكين بعراهما ؟

هل نبذ كل دينه ؟

هل نبذ أهل كل دين عقائد دينهم من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى فى دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شيء منها فى أمانى معلميهم وناشرى شريعتهم عندما يتربعون فى محافل

---

(١) هذا وصف دقيق صحيح لما كانت عليه حالة العرب جميعا فى عصر الاستاذ الامام محمد عبده ، ولكن الاية قد تبدلت فى عهد الثورة الحاضر الذى عنيت فيه الجمهورية العربية المتحدة خاصة ، والامة العربية عامة باتباع الاية الكريمة : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى جانب النهوض بالتصنيع ، ومن أهم وأعظم مظاهره مصانع الاسلحة والذخيرة . ولكن الدعوة الى التسليح مازالت قائمة فى كل وقت لهذا الجيل ، وللاجيال القادمة ، ولكل أمة عربية واسلامية فى الشرق والغرب .

دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله فى الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الأرواح أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ، أو تغاصت النفوس عن الانتعاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه أن يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ أينسب هذا الى اختلاف الاجناس ـ وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة ويتقاربون فى الانساب الدانية ـ أينسب هذا الى اختلاف الاقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون فى طبائع البلدان ويتجاورون فى مواقع الامكنة ؟ الم يصدر من المسلمين وهم فى شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الالباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسى السيادة فيها . كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية (١) أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها . ذكر ملكام سرجم (انكليزى) فى تاريخ الفرس ان محمودا الغزنوى (٢) كان يحارب وثنيى الهند

---

(١) الالات النارية ، هى التى عرفت أيام العرب باسم «النار الاغريفيه» ولا يعرف بالضبط من هم مخترعوها • وهى أقرب ماتكون الى ماعرف أيام الحرب العالمية الثانية باسم « سلة مولوتوف » غير أن الفرق بينهما ان الاولى كانت تتحمل مواد ملتهبة وتقذف بما يشبه المقلاع على العدو • فتشتعل النيران حيث تقع • أما سلة مولوتوف فتحمل عدة قنابل تنفجر فى عدة مواضع بدلا من موضع واحد •

(٢) السلطان محمود الغزنوى من أشهر رجال التاريخ ، وكان مسلما منديناً ، فتح غزنة « أفغانستان » ودخل الهند غازيا ، وأدخل فيها الدين الاسلامى •

بالمدافــع ، وكانت هى الســـبب فى انهــزامهم بين يديه سنة (٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئا منها . فأى عون من الدهر أخذ بأيدى الملة المسيحية فقدمها الى ما لم يكن فى قواعد دينها ؟ وأية صدمة من صدماته دفعت فى صدور المســلمين فأخرتهم عن تعاطى الوســائل لما هو أول مفروض فى دينهم . مقام للحيرة وموضع للعجب ، ويظن ان لابد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

ان الدين المسيحى انما امتد ظله وعمت دعوته فى الممالك الاوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقةوعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحى اليهم مســالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقــوة فــكان كالطراز على مطــارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن أسلافهم ، ومع هذا فان صحف الانجليل الداعية للسلامة والسلم لم تكن كسابق العهــد مما يتناوله الــكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ، ثم ان الاحبار الرومانيين (١) لما أقاموا أنفسهم فى منصب التشريع وسنوا محاربة الصليب ودعوا اليها دعوة الدين التحمت آثارها فى النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الاثر تزعزعقائد المسيحية فى أوربا ، وافترقوا شيعا وذهبوا مذاهب تنازع الدين

---

(١) لقد عارض الاباطرة الرومان قيام الدين المسيحى فى بداية الامر لانهم كانوا يعتقدن أن فى هذا انتقاصا من سلطتهم الزمنية فضلا عنالدينية

فى سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم فى جرائيم وجودهم ضراما ، وتوسعوا فى فنون كثيرة ، وانفسح لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم فى الفن العسكرى واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم فى سائر الفنون .

أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم مانالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الاذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال ، هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وماوضعه كذبة النقل من الاحاديث ، ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ويثبتونها فى الكتب ، وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ، وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصا بعد حصول النقص فى التعليم والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة التى دعا اليها النبى وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة فى دوائر مخصوصة ، وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة

فى وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذى نعانى من عنائه اليوم مما نسأل الله السلامة منه .

الا أن هذه العواض التى غشيت الدين وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته ؛ وأن كان حجابها كثيفا ، لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التى لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لا ينقطع ، والمنـــازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج ، وحيث أن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه بلوح فى أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلابد يوما أن يسطع ضياؤها وينقشع سحاب الاغيان ، وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وامامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحمـــاية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ، لا يعين لها وجها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم فى فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقـــوقهم وضنا بأنفسهم عن الذل وملتهم عن الضياع والى الله تصير الامور .

المسـألـة الإسـلامية
بين هانوتو والإمام

كتب مسـيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى جريدة « الجرنال » الباريسية مقالا عن الاسلام والمسألة الاسلامية نشر في جريدة المؤيد . فرد عليه الاستاذ الامام بمقال بليغ افحمه فى كل ما جاء به .



مقال مسيو هانوتو

أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية .

اخترق المسلمون ابناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى افريقية حيث ثبتت أقدامهم احقابا متعاقبة ، ولكن كان لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة مدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى المغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله .

فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته. جاء القديس (لويس) (١) الذى ينتمى الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابليو الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القــرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التي كانت لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الاوربية ، فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ ٧٠ عاما (١٨٣٠) ، وكذلك القطر التونسى منذ عشرين عاما (١٩١٢) .

قد وصلت طلائع قوانا الآن الى أصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت ، وظنهم أنهم صاروا فى أمنع موئل ، شعروا بانفسهم وقد حلق عليهم الاوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) اخبرتهم بأن الاوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل) (وباماكوا) (وسيجوسيكورو) وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ اعوام ، وأكد لهم هذه الاخبار أيضـــا رسلهم الذين يخترقــون افريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانغا) و (تجاوندره) قــد وطأتها أقــدام

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا المتدين ، وهو قائد الحملة الصليبية التاسعة التى هزمت فى المنصورة عام ١٢٥٠ • وأسر هذا القديس فى دار ابن لقمان •

الحاملين للعـــــلم المثلث الالوان الذين يصـــــعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها ، وان وابوراتهم فى (الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهرى (الكونغو) و (الشارى) (١) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الاسود المسترسل خلفهما ، عندئذ كان يطرق الاذان صوت اليائسين وقد جلسوا امام دورهم واضعين رءوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والـكدر ، وهم يدعون الله ويـكررون قـولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليهم ، ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدرا مقدورا) .

اذن فقد صارت (فرنسا) بـكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت اراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين ، وهى تدير اليوم شئونه ،وتجبى ضرائبه، وتحشد شبانه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عســاكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الافريقية هى الوراثة لما أبقته الدول الســابقة والامم البائدة من (قرطاجيين) و (رومانيين) و (عرب) من آثار المدنية التى كانت القارةالافريقية منبتا لثمارها اليانعة .

(١) نهر شاري هو الذى يصب فى بحيرة شاد فى وسط غرب افريقيا

خطر الاســـلام

ان شعبنا جمهورى المبادىء يبلغ عدد أبنائه أربعين مليونا ، لا مرشد له الا نفسه ، لا عائلات ملوكية فيه تتنازعه الحكم ، ولا رؤســـاء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذى تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساوى ضعف عدده وهو ذلك الشعب المنتشر فى الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة ، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الاسلامى السامى الاصل الذى يحمل اليه الشعب الآرى المسيحى الجمهـــورى الآن ملح وروح المدنية . نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولـــكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطـــلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا فى (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد فى الغمــوض والاشتباه ـ قريب منا فى (طرابلس الغرب) التى تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الابيض المتوسط ، وبين الطوائف الاسلامية فى باطن القارة الافريقية ـ قريب منا فى (مصر) حيث تصـــادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها فى الاقطار الهندية وهو موجود وشائع فى (آسيا) حيث لا يزال قائما فى (بيت المقدس) وناشرا أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره واشياعه فى قارات الارض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه في بلاد (الصين) فانتشر فيها انتشارا هائلا حتي

ذهب البعض الى القـــول بأن العشرين مليونا المسلمين الموجـودين فى الصين لا يلبسوا أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكيامونى) ، وليس هذا الامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة الا واجاز الاسلام فيه حدوده منتشرا فى الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له زمرا وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ، ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شـــعار قواعد الحياة ومبادىء السلوك فى هذه الدنيا ، كما ان امثالهم فى القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامى ، ثم هو ، اى هذا الدين ، قائم الدعائم ثابت الاركان فى أوربا عينها ، أعنى فى الآستانة العلية حيث عجزت الشـــعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع ، الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول العربية بعضها عن بعض شطرين .

فى باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقـد تدثروا بثياب الصوف ، وتعمموا بالعمـائم الـكبيرة ، جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لا يحركون من مقاعدهم ؛ ينسبون بكلمات تطابق تحـريك أيديهم حبات السبح ، منتظرين مجىء دورهم فى المقـــابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين ممن يقيمون في (الآستانة) أو فى (مراكش) ، فى أرجاء آسيا أو

اصقاع افريقية ، من بدو كانوا او حضر ، واقفين فى اماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين اذا حانت الصـــــلاة ، يتوضئون أو يتيممون بالتراب مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة ، أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان فى نطاقهم ؛ أو يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة فى باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر جهة واحدة ، هى الارض المقدسة ، هى الارض التى تكتنفها الصحراء ، هى الارض التى عاش فيها محمـــد ، هى الارض التى تتضمن جسمه المبارك ، فى قبر لا يجسر أحد على الوصول اليه الا مفطى الوجه حياء وهيبة ، هى الارض التى جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هى الحج الابدى الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ، ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة فى الحياة الا بأمل العودة اليه ؛ ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة . وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة ، بها يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التى يبتغونها ، وهـــذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هى القطب الذى تنتهى اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة ـ من البيت الحرام ـ من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس ـ من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة ـ من الركن الذى يقولون عنه انه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم

العزيزة التى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على اداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا العبادة بقوله : « باسم الله » فيعم السكون والسكوت ، وينشران اجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجى الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به ، لانه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة بدار سلام وانما هى « دار حرب » (١) فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان، والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها من الدخول اليهم من بينها .

ترى فى قرانا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدثرا بأرديته البيضاء المقلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شىء — هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راويا حوادث الاقطاب والاولياء من

---

(١) كان عند المسلمين داران : دار السلام ودار الحرب ، ويقصدون بالاخيرة مناطق سكنى العدو المتربص على حدود الاسلام . أما مدن الحدود فتسمى الثغور .

مشايخ الاسلام ، انما يبذر فى القلوب حيثما حل واينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

***

ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ، ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا ، وغاية الامر ان العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية ، فيستقبلهم اهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لا يرى فى اكرامه له أقل من أن ينحر له شاة ، هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لان مقدار مانجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون ، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك الا لان الرابطة التى تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم ، ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، لانها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهة المدنية الحاضرة ، وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التى

تلي أملاكنا في الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائما بها هيكل الاله آمون (١) وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) . ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر ان أخلاقهم الشديدة قد تلطفت فتقربوا أخيرا من الدولة العلية . غير ان هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ، ولم يكن الامر مقصورا على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشـــام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية ، تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أنها تفترسنا اذا أغمضنا الطرف .

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لاوامر سرية ، تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهــاجرة أوطانهم ، والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الامن المرجو .

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح ، وطي أفــكار المقهورين الــذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة

---

(١) لعله يقصد به واحة سيوة . ومن المعروف أن معبد الاله أمون كان يقع في هذه الواحة ، ولا يغيب عن البال أن الاسكندر الاكبر المقدوني قد زار هذه الواحة ، ودخل حرم هذا المعبد فيها حيث أخـذ من الهة آمون تفويضا بحكم العالم . وقد ذكر هذا المؤرخ و . تارن في كتابه بعنوان « الاسكندر الاكبر Alexander The Creat »

الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ، ففى مسألة علائقنا مع الاسلام تجد المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض ، وهذا يجعل حلها صعبا ومتعذرا كما سنبينه .

المسائل الاساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع أنها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . اذا تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ، أم للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ، أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

فى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع ان البحث فيها لاصابة هذا الفرض السامى لم يكن بالامر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين

فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منهـــا كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين .

وغاية ما عرف منذ الاعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشريةمن تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهى الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانســـــان في حضيض الضعف ودرك الوهن . ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات .

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى فؤاده ، وتثبيط همته ، وايهان عزيمته ، بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ، ومن الامثال على الفـــــريقين البوذية الذين يدينـــون بدين يقضى عليهم بالتجـــرد ، اذ من قواعده ان الانســــــان والكون يفنيان فى الذات الالهية (١) وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان في أوصافه المادية ، يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يعتبر فى عـــداد الآلهة بحسناته وخيراته .

---

(١) معنى كلمة « بوذا » هي كشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم . وكان هدف المعلم بوذا الذى عرف بهذا الاسم هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها . فقد جاء فى نص قديم ينسب اليه ــ الى بوذا ــ ويوضح حقيقة الرسالة التى كافح من أجلها ما يلى :

« لما كان المحيط الكبير ليس الا مذاقا واحدا هو الملح الاجاج ، كذلك الحال مع هذه العقيدة ليس لها الا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر »

وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان ، احداهمـــا ربانية والثانية بشرية تمثلانه فى ذينك المذهبين المتناقضين ولكن بتلطيف فى التناقض . أما الاولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ، على حين ان الديانة الثانية وهى الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له .

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الاساسى لكتا الديانتين ، وهو أصل الالوهية ، أما المذهب المسيحى فيذهب فى هذا الاصل الى الثالوث أى ان الاله الاب أوجد الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس : وعليه فيكون يسوع المسيح الها وبشرا ــ هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود اله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : « لا اله الا الله » .

غير ان ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة ، اذ هو يحملهم على اتيان الاعمال التى تقربهم الى الله حيث الوســـائط بينهم وبين ذاته الجليلة موصولة فى حين ان المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله

الاحد الذى هو مستودع الآمال ولفظة الاسلام معناها « الاستسلام المطلق لارادة الله » .

ترى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مشتقتان من الاصول اليونانية السامية ومنها استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب فهما اذن متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية .

رأيان فى الاسلام

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى فرأى فى الاسلام العدو الالد والخصم الاشد . قال المسيو كيمون فى كتابه « باثولوجيا الاسلام » : « ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح ، وما قبر محمد فى مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة

الله الى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ، ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحاني والليمانيا أو الماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات .. الخ الخ » .

امثال هذا الكاتب يعتقدون ان المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وان الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضا) والحكم على الباقين بالاشغال الشقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا أيضا قوله) ... وهل حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم وان من الجائز أن يهب هؤلاء «المجانين» للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم .

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى الى ان الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنابعروةالاخاءوالتصاحب، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيد لوازون (القس باسنت سابقا) معترفا ومقرا أنالاسلامهوالدينالمسيحى مسحجا ومحورا ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله ، مستندين فى ذلك على ما دونه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : « ان الاسلام قنطرة للأمم الافريقيةينتقلونبواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه مقصورا على معاملة الاسلام بالتساهل

والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه ، وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس، وجعله رائدا لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد » .

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتطلف والمسالمة ، ولكنها وان افترقا ، متصل بعضهما ببعض وموجودان فى حيز واحد . وقد لوحظ كثيرا ان كل فرد من أفراد موظفينا او وكلائنا أو ابنائنا المستعمرين قد حار بين المبدأين ، وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لميوله نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد بأحدهما المتطرفون وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما .

وتلك الميول المتعاكسة التى برزت من مكان الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ ، هى التى أحدثت التناقض فى أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية ، وادت الى الشكوك والريب ، ونقض ما أبرم ، وابرام ما نقض ، الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما فى البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان فى أنه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة ملايين أو خمسة فقط ، بل يسرى على نصف قارة بأكملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالى وابطال التجارة فى الرقيق .

المسألة خطيرة

فالمسألة اذن خطيرة جدا ولابد من الاعتماد على أمر واحد فى حلها ، اذ لا يكفى للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت ان أعرضها على محك الرأى العام ، مبينا أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب ، للوصول الى نتيجة فعلية ، وموردا شيئا واحدا هو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسألة واشدها ارتباطا به .

قد سبق لى وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ، ان سألت ـ ولا زلت اكرر هذا السؤال ـ الحكومة أن تبحث بحثا علنيا فى علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين ، بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين ، ليتجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه .

ان الراغب فى الاستعمار من ابناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس أو السنغال ، فيجد نفسه فى اتصال مع العربى ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، اذ منه يشترى الارض التى يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شئونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه اكثر خطرا ، اذا كانت العلاقة بين الاهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ، ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم ، والقيام على شئونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم

وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يديرها احد عشر وزيرا ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أنعما النظر فى خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التى عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها .

مع ان الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة ان نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامى . ان فريقا كبيرا من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون على اتصال بالمسلم . وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين انفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من بقية أخبارهم فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع ، حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد فى الامر الذى نحن بصدده ، وهو من أكثرها غموضا والتباسا ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التى تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الانوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الالسنة ، وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب فى المدراس فتنمحى بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من

العثرات . وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه وتجتنى ثماره ، وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختيار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا فى عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء فى الندم والحسرة من عواقب هفوة أو زلة سقطوا فيها . وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم .

ولست أظن أحدا يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات أخالها ضرورية للوصول الى الغاية المقصودة من أقوم طرقها .

أشرت سابقا الى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين فى العالم الاسلامى ، والمسلمون فى الاحوال الراهنة شاعرون شعورا قويا بايمانهم العام ، غير ان ادراكهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القــــدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية ، اذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام ، فلا يجوز أن يتولاها الا من كان من عقيدتهم . ولم تدخل فى رءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم ، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ ، فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخـــاضعة لحكومات مسيحية .

على أنه بالرغم من ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء ، نريد به القطر التونسى الذى وضعت عليــه الحمـــاية التى مؤداها احترام

النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباى ، وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، وأجريناه من المراقبة على شئون الامور الادارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ؛ والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم ننخدش له احساساتهم ، اذ لبثت المساجد المغلقة فى اوجه المسيحيين ، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها ، وتركت أزمة الاحكام بأيدى القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الا برضا وتصديق من الاهالى ، وربما كان يطلب منهم ، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين . وجملة القول ان انقلابا عظيما حدث بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى ، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدى ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر .

اذن يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض . اذن توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الاسيوى . ارض نشأت فيها نشأة جديدة ، أنبتت فى قضائها وادارتها وعاداتها

واخلاقها ، أرض يصح ان تتخذ مثالا يقاس عليه ، الا وهى البلاد التونسية .

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجة وورومية وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فأصبحت الان مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام ، ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان بل متداخلتان ، حتى تأكدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الاراضى الخصبة والسماء الصافية الاديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام بلطفانها ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ما تعاقب فى الاقطار التونسية من المدنيات القديمة ، تندثر تماما ولم ينمح أثرها كى تهتز لاستقبالنا ويوصل بعضهابعض ما انقطع من حلقات الدهر الماضى .

ان مسجد القيروان (١) الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجرى الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التى عبدت فيها تانيت . وخلاصة القول ان مزيجا من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش فى خلال الجيل الذى نطرق الآن أبوابه .

---

(١) القيروان مدينة تونسية شهيرة بمسجدها . انشأها عقبة بن نافع عام ٦٧٠ م فصارت عاصمة افريقيا . وقد بلغت أوج عزها على أيام الملوك الاغالبة فى القرن التاسع الميلادى . وكانت دارا للصناعة ومحطا للقوافل وسوقا للتجارة .

مقال هانوتو الثانى

من المسلم انه يتعذر على الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التى ترد الى بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلونى شكرا جزيلا ، وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به على وأبانوه لى محفوظ فى مخيلتى . ولا يبرح عن ذاكرتى ، وانى أجد فى تبادل الافكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع ، وبالرغم مما يخالجنى من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات، أرى أن لا مندوحة لى من العود الى بعض المناقشات التى أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثا فى مسألة الاسلام ، والحق يقال أننى أصبحت بسببهما كما يقال ، بين نارين فالمسيحيون أنحوا على بالتعنيف واللوم قائلين : اننى تظاهرت بالميل للاسلام ، واتخذنى المسلمون خصما لدودا لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق ، لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصور والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى عليه ضربات المطرقتين .

ويجب قبل الدخول في الموضوع ان أشير الى طريقة من الجدل : كان الجهل بلغتنا ، وهو في نظرى أكثر تأثيرا من سوء القصد ، سببا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها ، فان جريدة « المؤيد » التى تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين كتبتهما على الاسلام ، ولعل القراء يذكرون انني أوردت فيهما آراء كيمون التي أبداها في كتابه (باثولوجيا الاسلام) وان ايرادى لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ أشرت الى خطر شدتها ، وأبنت العواقب الضارة التي يفضى اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من أقوال كيمون التي أوردتها ، وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتى (أنا انقل) محصورتين بين قوسين دفعا للالتباس ومنعا للشك .

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت الى تلك الافكار التي عمدت الى دحضها واظهار فسادها حتى ان أحد (١) كبار أئمة الدين الاسلامي كلف نفسه مئونة الاجابة في جريدة المؤيد على افكار ليست أفكارى ، بل هى نقيض ما ذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثى ، ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسي أم وقف عليه من الترجمة . اما انه لم يفهم مرادى واما ان الترجمة كانت فاسدة لم تتوافر فيها شروط الامانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لاقواله على حقيقة فكرتى

---

(١) يشير الى الشيخ محمد عبده . وسيأتي رده في الفصل القادم .

التى كشفت النقاب عنها فى آخر مقالتى ، وكلها احترام واعتدال ومسالمة ، وتوفيق علي احدى الجرائد العربية التى تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة فى جميع العالم الاسلامى ألا وهى جريدة « الاهرام » قد أتت بتلك الملاحظات احسن مما أستطيع ايرادها به ، فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذى يدير فى آن واحد جريدة « البيراميد الفرنسية » قد افتقى أثر ملاحظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ولم يبق لي بعد مناقشته التى روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله ، على أننى استنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها فى نظرى كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهى أن منشأ المشاكل والصعوبات التى تقوم بين الناس هو سوء التفاهم والخطأ فى معرفتهم مقاصد بعضهم بعضا ، اذ كثيرا ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأى من مرامى حيلة من حيل المناظرة ، سببا فى جر ما لا يحصى من المصائب بل سببا فى انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ورابطة الجوار ، وكانوا الى الالتئام والاتفاق أقرب منهم الى الخلف والانشقاق .

ولو أمكن محو ما تراكم شيئا شيئا حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة والشدائد التى لا فائدة منها ، وتيسر العود الى النقطة الاولى التى كانت مبدأ النزاع وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة فى تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التى جعلت الفارق عظيما ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل ان العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور

لولاه لتعذر على الفهم ان يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة فى الرداءة والسوء مبلغا عظيما ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه ، عما اذا كان فى الامكان اصلاح ما انثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس فى فهم مقاصد بعضهم بعضا .

ومن الامور التى لا يزال خاطرى منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ، ولو كانت من أهم المسائل واخطرها تتضمن فى ذاتها الحل الملائم لها والمطابق للانصاف والسلام ، وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد فى المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الافكار ، بأنه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتهما القصوى المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما فى التجرد عن الاهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما وتتطابق رغائبهما .

وقد اعتقدت دائما ان للسياسة على الخصوص مهمة فى هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلقه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلى الذى يقوم به السياسيون بدون لغط ولا ضوضاء فى سكون مكاتبهم ، أما الاعتماد على القوة والركون الى العنف الذى هو أخص ما يلتجىء اليه القوى فهو من أخريات الوسائل وأحطها ، وهو حيلة من لا حيلة له .

ويظن الناس فى الغالب ان الواجب التفرقة بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ، اذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه

جولتها ، وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضـــا على المناقشات الفلسفية والدينية ، اذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التســـامح والاحتمال ، وليس التســـــامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضـــه من مخترعاته ، لاننا اذا نظرنا فى أصـــول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التى تعذر التوفيق بعد فيما بينهـــا أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصلا القـــول ان معيشـــة بنى الانسان مع بعضهم بعضا بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم وحسن ارادتهم .

وقد حدا بى هذا البحث الى نوع آخر من الانتقـــاد صوبه نحوى بعض المسلمين ، وليس المقصود به السياسة فى هذه المرة بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية . وقد انتهت الى رسالتان غريبتان فى هذا الباب ؛ احداهما من رجل مشهور الاسم فى فرنسا وهو (أحمد رضا) مدير جريدة « مشورت » الذى جمع ملحوظاته فى رسالة سماها (التسامح الاسلامى) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذّين يتهمون العالم الاسلامى بالتعصب الدينى ، واستشهد فى خاتمتها بكلمات قالها الكردينال «لافيجرى» وهى : (اجاهر علانية بأننى أعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر فى دعوتهم الى الدين المسيحى اثما من الآثام وضربا من ضروب الجنون) ، وانه ليفيض بى الـكلام على الوصف الذى وصف به صاحب الرســـالة تسامح المسلمين ، ولكننى على ثقة من ان تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التى نقصدها ، وان الاجتهاد فى فهم بعضنا مقاصد بعض اولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام .

وقد وردت الى رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة أحمد أفندى مدحت أكبر كتاب الترك فى الوقت الحاضر ، وانى آسف شديد الاسف من عدم امكانى نشر مضمونها بأكملها فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها ، ولا ريب فى أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقى مكتوب بلغة فرنسية صحيحة ، غير ان فى المباحث الدينية ، ولو كانت متعلقة بالاسلام ، شيئا من الاكفهرار والتجهم ، على ان هذا لا يمنعنى من ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدا الدين الاسلامى ، وها هى : « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم رقيب نفسه ، فهو لا يقدم لاحد سوى الخالق جل وعلا حسابه عن أقواله واعماله ، ولم ير النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولم تسمح له فرصة رأى منها لنفسه حقا أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس (الدين) فى الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى وهو ما يؤخذ منه انه لو سأل أحدهم ما هو الاسلام ، لاجاب المسلمون على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف ــ فالديانة القرآنية لا تهوى بالانسان باقصاء الاله عنه فى نهاية الفضاء ــ اذ جاء فى القرآن الشريف (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشرى » . ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامى يراه أرقى وأحسن ما يدفع عنه به ، وأخذ يعتب على

لكونى اختصرت البحث فى المسألة الفلسفية ذريعة الى قصر الكلام على المسألة السياسية .

واننى أعترف بأنى انصرفت أثناء سياحتى فى الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القارىء لا يمل حديثى فاننى أورد هنا بايجاز كيفية الاسباب التى حملتنى على هذه السياحة وقصر مباحثى مؤقتا على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية .

لما كنت اقرر مباحثى فى تاريخ الكردينال ريشليو ، وصلت الى النقطة التى أفضت به الظروف الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التى حومت حوله ، واستلفتت أنظاره ، ففى أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٢٦٣ أى ابان استلامه زمام الاحكام ، ظهرت المسألة البروتستانتية ، وسوف أورد كيفية حله لها ، ولكن ما يعرفه القليل هو انه عرض عليه الحكم فى المسألة المحمدية ، أو بعبارة اهل ذلك الوقت فى المسألة الصليبية (١) .

---

(١) ليس عجيبا أن يدافع الوزير هانوتو الفرنسى عن الوزير الفرنسى ريشليو • والحقيقة التى تبدو واضحة من تاريخ ريشليو انه كان رجلا شديد الدهاء ، عظيم الذكاء ، وان تنحيه عن الاشتراك فى الحروب الصليبية ، وعدم الاستجابة لرغبة الذين أشاروا عليه بذلك ، لم يكن ذلك منه الا بدوافع اخرى غير عدم الرغبة الشخصية ، فقد كان أول كل شىء يريد أن يوطد مكانته ، ويرسى قواعد حكمه على أسس قوية • وكان ريشليو يحارب مختلف التيارات السياسية فى بلاده ، ويقف بالمرصاد لمؤامرات خصومه . فلم يكن من حسن الرأى بتاتا أن يرسل الى خارج بلاده جيشا هو فى امس الحاجة اليه داخل البلاد • وكان من ناحية أخرى لايرى ثمرة لمثل هذه الحروب المشتركة . مما يمكن أن يعود على فرنسا بفوائد يستطيع أن يواجه بها خصومه الكثيرين ، ويفخر بها عليهم • فلم يكن تنحيه عن الحروب الصليبية نزعة استقلالية كما يقول هانوتو ، ولكنها دواعى السياسة الداخلية هى التى أرغمته على هذا الموقف •

وكان يوجد فى فرنسا وقتئذ جم غفير من النـــاس يجاهرون بضرورة استئناف الحـــروب الدينية التى اشتهرت بها القرون الوسـطى ، واسترسل فى هـذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء الـكردينال ريشليو الذين أخذوا بناصره فى خطاه الاولى ، ووالوه بنصائحهم وســطوتهم ، ومنهم الدوق دى نيفير ، والاب جوزيف صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذى انطوى معهم فى أفكارهم قلبا وقالبا ، حتى لقد بدىء فى ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة مارى دى متديسى الذى اجلس ريشليو على منصةالاحكام، وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين حزب من الصليبيين .

فما كان من الكردينال ريشليو الا ان قطع كلّ صـلة من أصدقائه رافضا أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الاب جوزيف الى ناحيته ثم ولى وجهـــه عن الاسلام فحارب ـ كما هو مشهور ـ الاسرة النمساوية . والحق يقال ان الكردينال كان من أقل الناس تعصبا ، فانه قبل أن يأتى بما عمل به ، بنى عمله على أسباب تأمل فيها طويلا واستنجد وقارن ، وان هذه الاسباب هى التى كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها .

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال فى أسبانيا وافريقية الى حيث تلك البقعة التى تم بها الاقتران بين العالمين الشرقى والغربى ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذى استحثنى مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الاصقاع باحثا ومفكرا . شاهدت فيها أطلال قرطاجنة

اى اطلالها فى عهد هانيبال (١) والقديس اوغسطين (٢) وفى عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لى وانا واقف على تلك الطلول ان الارض التى كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضا مهبط السكينة والسلام .

أما الاسباب التى حملت ريشليو على العـــدول عن الحروب الصليبية فلسوف أبينها في يوم ما . ولكننى بالبحث فى الماضى والمشاهدة العيانية فى الحاضر قــد توصلت الى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام فى عين المــكان الذى اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الاسباب فأشرت الى السلم الناشيء من الحماية ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس ، كان لا يظن أنهما يجتمعان فى وئام واتفاق ، باحترام كل منهما معتقدات الآخر . لما لاحظت هــذه الامور ، كنت أود مداراة العواطف ، والاقتصــار على عبارات التسامح والمسالمة ، والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر ان هذا صعب المرام ، اذ الجميع لم يفهموا مرادى ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدى ، ومهما يكن من الامر فان من الامور المهمة قيام الافكار فى البلاد المسيحية واسلامية قياما اذا تحركت فيه بالحركة

---

(١) هانيبال قائد افريقى من قرطاجنة دوخ الرومان والدولة الرومانية فى عز مجدها وسطوتها ، وقد هاجم روما برا من ناحية اسبانيا ثم عبر جبال البرانس الى فرنسا ثم عبر جبال الالب الى حوض اليو فى ايطاليا ، وبعدئذ اتجه جنوبا الى أن هزمته روما فى موقعة ترازمين عام ٢٠٢ قبل الميلاد . ولقد تعقبت روما القرطاجيين من بعده الى أن انتهى الامر بتدميرهم قرطاجية « فى مكان تونس الحالية » تدميرا تاما فى عام ١٤٦ ق.م

(٢) القديس سانت أوغسطين كان رجلا متدينا راعته غزوات الجرمان الوثنيين المروعة على مدينة روما المسيحية فكتب كتابه المشهور « مدينة الله » صور فيه اختلاجاته وعقيدته ، وأهاب بالمسيحيين انقاذ مدينتهم ودياناتهم

الطبيعية المبنية على حسن النية وطهارة الضمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق لا الابعاد والتفريق .

***

هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح .

حديث مع هانوتو لصاحب جريدة الاهرام

فى يوليو ١٩٠٠ ـ الذى نشر فيه هانوتو رده السابق على الاستاذ الامام سافر الاستاذ بشارة تقلا والتقى به فى باريس ، فجرى بينهما حديث عن هذا الموضوع نشر فى عدد الاهرام يوم ١٦ من هـذا الشـهر ، وقد قدم صاحب الاهرام بما يلى :

رأيت وأنا فى باريس ان اقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتـاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق ، وكنـا نعتقد ، كما قالت الاهرام مرارا وتكرارا ، ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقـواله وآراءه ، فاستأذنته بذلك فأذن لى . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أممها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا الا يوم تقيدت السلطة المدنية ، وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة ، وأنا لم أكتب الا الى

أبناء وطنى الفرنسيين ، ولم أستشهد بكيمون ، وهو يونانى الجنس ، الا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها ، فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسيين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه ، وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ، ونجاحهم بعيد ، لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء وهى أنه كلما تقدمت أوربا تأخر الشرق ، لان الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشى ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت ، مع ان الدولة العثمانية وافغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة ، وانما ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادى ان الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدى هذا بتونس ، فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالى وسياستى هذه هى روح كتابتى السابقة وانها ستكون روح اللاحقة .

والذى دعانى الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان فى الاعصر الخالية ، وما دفعهم فى الايام الاخيرة الى ذلك الا الحوادث الارضية وغيرها (١) ، ولما كنت قد وقفت نفسى لدراسة حياة ريشليو السياسى الشهير ، وسرت فى أكثر أعمالى وكتاباتى على منهاجه ، وعرفت ان هذا

---

(١) اختلفت الاراء وتضاربت فى تقرير دوافع الحروب الصليبية فقال البعض انها حروب دينية بحتة ، وقال آخرون انها حروب استعمارية . والواقع الذى يستطيع كل من تتبع تاريخ هذه الحروب آن يلمسه ويدركه ، هو أن هذه الحروب كانت دوافعها دينية واستعمارية .

الرجل مع انه كاثوليكى وكردينال من اعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء ، سياسة الصليبيين ، وحال دونها بدهائه المعروف ، مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذا السياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الاعصر ، أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انقاذها. لا لعمرى ، فلهذا عارضت بالامس ، ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم ، فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية ، فهى عدوة المدنية بل هى أفظع الاعمال .

على أن معارضتى لامثال هؤلاء الكتاب ، أى نقضى لاقوالهم ، لا يمنعنى عن أن أقول لكم الحقيقة ، لانه يستحيل على أن أقول أن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا فى العدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل على أقول ان حالتكم الحاضرة ضمان لمستقبلكم السياسى ، فاعلم ان أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد ، بل لتفصلها عن السلطة المدنية ، فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ، ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنية فى أحوال الحكومات وشئون الشعب ، وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

واعلم ان الذى أيد هذه السياسة ايضا فى بلادنا فرنسا هو اعظم تلامذة روما وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي

الكردينال ريشليو . فهو الذى قال بفصل السلطتين ، ولم تنسه واجباته الكنسية الدينية معرفة الحقيقة ، وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات وتقدمت شعوب اوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السـلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام .

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين فى مستعمراتنا بان يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة ، مع احترام عقائد الشعوب التى تحت حكمنا وسلطتنا ، وهو ما سرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية .

وانى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ أو كاتب حر الضمير ، لا شأن لغيره فى معتقده الخاص ، ولكننى أحترم كل دين ومعتقده ، وأقدر تلك الادبيات حق قدرها ، ولكن الماديات غير الادبيات ، والاولى من شئون عالمنا هذا الذى الماديات غير الادبيات ، والاولى من شئون عالمنا هـذا أن تموت ،اذ لا حياة بلا مادة ،والهكم أنتم أيها الشرقيون اله أوربا واله أمريكا ، اذ ان اله الجميع واحد ، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الاوربى منه على الامريكى ، فالشرقى بل ان الشرقيين عمـوما ، أكثر تمسكا بعقـائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا ، وكثيرا ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى أميل الى الامريكى منه الى الاوربى أو الشرقى ، ولكن لان الاخير مستميت والاول حى ، هذا يشتغل مجتهدا ، وكلما زادت ارباحه زاد نشاطا واقداما ، وذاك يقضي حياته

بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الاوربى وتأخر الشرقى وضيق أوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب ؛ فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لا حراك بها ، فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها .

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ، وتعتقد انهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ، ولماذا لا تسأل الحكومة الفرنسية ان ترى فى أحوال هؤلاء ؟

فقال : اما التونسيون فلا خلاف فى انهم مسرورون بحالتهم ، ونحن قد دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف فرق شملها أفراد حكموها . واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم واحوالهم الشخصية ، ولم نسألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وأنت تعلم ان مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لا ضم المستعمرة الى فرنسا ، كما فعلنا في مدغشقر بالرغم من معارضتى ذلك ، وقد رضيت به منقادا لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا فى ذلك ، وسأكتب كثيرا فى هذا الموضوع ، لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ، ودرست أحوالها ، وأملى الا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى وشرعت حكومتنا فى انفاذه .

ـ قلت : انى أعرف ما سردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية فى أوربا وعن أحوال شعوب القطرين ، (تونس والجزائر) ولكن ذلك مستحيل فى الشرق

ولا سيما فى الحكومات الاسلامية ، والذين يقولون به من الاجانب ليسوا الا خصوما للمسلمين ، لاعتقاد هؤلاء ان فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم .

قال هانوتو :

أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ، ولكن أعتقد ان أوربا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين ، وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة ، كما أنى أعتقد ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع أن تخسروا فى الحروب الماضية ، وأعتقد أيضـــا أن صاحب السلطتين ولا سيما فى بلاد كالشرق يستطيع أن يجرى اصلاحات لا يقدر غيره عليها . ويعلم المسلمون ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاءعلى الجزائر وتونس ، وانكلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخـذ تركستان وغيرها الى حدود أفغانستان ، كما أنه يمنع لم يمنع اســـتقلال مراكش وبلاد فارس ، والملـكتان اسلاميتان ، فاذن كان يستحيل توحيد سلطتهما الدينية واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم أنه لا يحول دون التقدم العصرى فما بالـــكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادكم ، فاذا قلتم ان أوربا تحول دون الاصلاحات ، اذن ، فلم تأخرتم واليابان تقدمت ؟ وهى لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوربا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الاقصى .

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعـة في

اوربا والقـريبة من اوربا كسـوريا متلا سـالتكم ، هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن احوالكم ؟ ايظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا اوربى ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟

وأنا أعرف ان أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، ولكن قد حان لكم الا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى ، مادام كتابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها ، كأنى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فـكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين .

وانى أقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على على ماكتبته ، فقد عدونى خصما لهم ، ونسوا خدماتى اهم وانا فى منصة الوزارة الخـارجية فى أيام المسألة الارمنية ، فاذا كان هذا رأيهم فى صدىق خدمهم ، فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يقبل مثل تلك السياسة . ولا أقول هذا من باب العـداء ، بل لمـا نراه من تعـديل أوربا على وجه عام مبادىء سياستها الخـارجية مع الشعوب الشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين .

فقلت للمسيو هانوتو : وما شـأنكم والشرق وأممه فكلاهمـا راض عن حاله ، ومفضل لها على كل سلطة اجنبية أو أوربية ، والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوربا فى سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوى .

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الاقوال خيالية لا تنطبق على حالة أوربا فى هذا الزمان ، فهى بعد ان كانت لا تهتم بغير قادتها ، قد اندفعت الى الاستعمار ، ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة ، ما دامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى ارى كتابكم وافراد أمتكم يجهرون فى غالب الاحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانكليزى ، وينصرون للفرنسى على الالمانى ، ولكن اما حان لهم ان يعلموا ان الاوربيين مهما اختلفت أجنـــاسهم ومذاهبهم من السهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ لان هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الامة لاصلاح شئونهم بل لمعـــارضة دولة ثانية ، وهى سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوربا اليوم . وانت تعلم أن المانيا أكثر الدول فى أوربا استقرارا ، وأبعدها عن الاستعمار . وهى التى اقترحت تجديد مناطق النفوذ فى الصين ، وهى التى سألت امتياز انشاء «سكة حديد» بغداد مما يدلكم على أن أوربا لا تسعى الى مصلحتها السياسية .

ثم قال لى : انت تقول لى ان الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوربا كلها أو بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لا سيما وان اكثر الدول تطمع فى املاكهم ، وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوربا .

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، ولذلك لا يأمنون على انفسهم

من سياسة الدول المسيحية ، وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما راوه من تدخل اوربا فى أعمالهم ، ومن افعال الموظفين غير المسلمين فى المناصب السياسية العثمانية سواء أكان فى بلاد الدولة أم فى سفارتها ، وأنت تقول لى ان فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقال لى بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل ، واليك البرهان :

لا يسعك والساسة المسلمين أن تنكروا أن بعض دول اوربا قد اتفقت مع الدولة العثمـــــانية على دول ثانية مسيحية فى أوربا ، فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القرم ، فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعد دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوربا عن نيل أغراضها في المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الارمنية ، بالرغم من هياج الرأى العام الاوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك امور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا ايضا أن فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت الدول العثمانية ضد دولة ثانية مسيحية ، مما يدل على ان ضالةأوربامصلحتها الاقتصادية والسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة فى اعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية ان تحارب اوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ والم تحـــارب ايطـاليا

اوستريا ؟ وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من أن تحالف روسيا ومذهبها أورثوذكسي ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البروتستانتي الالماني والكاثوليكي النمسوي والايطالي ، وهذه الترنسفال دينهما كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني. وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها .

كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثه تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق .

واني أتساهل معك وأقول ، ان بعض دول أوربا يريد لكم سوءا ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق ، وهي في أوج مجدها وشامخ عزها ، ان تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام ، لان أوربا مسيحية ، وهو زعم باطل ، فهل كان ما ينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ،ويمنعها عن انقاذ ما يتهمها به المسلمون ؟ وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما ؟ أم تقبله فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيمون وغيره من كتاب أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب ان يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الاوربيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأي العام الأوربي اليهم .

اما كان يجب عمله على رجالكم سواء كان الذين عركتهم

حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوربا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو أن فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وان يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب ، بأن يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أى كما فعل اليابانيون فى السنين الاخيرة : وانت تعلم ان الذى نبه اليابان هو خوفا من أوربا ، وهى التى لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوروبى وذمه والمباهاة بمجد الاباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الاجنبى ، لانه عنصر غريب ، أو لانه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أى بأن تتشبه بها فى العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت فى مطالبها ، وحالت دون فتوحات الاوربى الاقتصادية أولا فالسياسة ثانيا .. ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القرم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم فى السياسة الاوربية سواء كان فى أوربا أو فى الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية .

***

واراني فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته من تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم لا أن يتجاهلوها ويكذبوها .

وتقول لى ان النهضة العلمية بدأت فى مصر ، وأن بعض الافراد انشئوا المدارس ، وان الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسيع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية، وان أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام ،وتأخر البلاد ، فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة، والامل وطيد بالنجاح . ولكن الطفرة محال وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لانى أرغب رغبة خالصة فى نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم ان العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل فى وضع « البروجرامات » المدرسية ، كما ان العلم وحده لا يـــكفى وقـــد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فانى لا أجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا فى أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا فى أوربا ايضا ، ولكننا رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوما لانى اعتقد ان رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية او مذهبية ، لان الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا ، وانت تعلم ان الفرنسى يشمل الكاثوليكى والبروتستانتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم من رعاية فرنسا ، ولـكن الكاثوليكى الفرنسى والارثوذكسى الفرنسى لا يشمل كل فرنسى .

لهذا كانت السلطة المدنية أهم واشـــــد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوربا الاولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ما أردت أن تعرفه منى عن رأيى فى الشرق .

رد الأستاذ الامام

ـ ١ ـ

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم فى جريده المؤيد نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق .

بحثه السابق وشيء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شئون دولته ، يريد أن يدعو قومه الى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم في ممالكهم ، وذلك لا يتم على مذهبه الا بالبحث فى طبيعة الامر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين ، وبه يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنسية . فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنسى ، وسهل الجمع بين ما وقر فى نفوسهم وبين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا ، وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنسى فى طبقته ، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الارض وإلا وجب عليها إن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجلبهم الى قارة اخرى .

ولهذا جره البحث الى النظر فى اصول دين المسلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى ، بل بينه وبين أديان كثيرة اشارة اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما فى نفوس معتقديه .

أما غايته من البحث وتنـــاوله بيده يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفـرنسيين ليثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعـــروفة (١) . فذلك أمر نكل فائدته اليه والى علمه بمكان دولته من القوة . ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية . ونلفت اليه ذكاء بعض شبابنا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بآداب الامة الفرنسية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسية .

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقالة هو العظة والاعتبار ـ حظ الناظر فى أحوال الامم واعمال رجالها ـ حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه اخطأ القائل أو أصاب .

أما ما جاء فى التحكك بأصول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم .

يرى الناظر فى كلام مسيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد فى العقائد ، وانه جمع خليطا من الصور وحشرها الى ذهنه ، ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم .

---

(١) يقصد بذلك الحروب الصليبية . ولعله يقصد بذلك البابا الفرنسى اربان الثانى

اكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السامى والتفريق بينهما ، وان أحدهما قهر الآخر وان التمدن الارى هو الذى ظفر بقرينه التمدن السامى وما يشبه ذلك .

ان مهد التمدن الارى ومنبت غراسه (الهند) لا يزال الى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى أغلب انحائه . ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسـام لا يمكن الخلط بينها بل يدوم تباينها ما دامت الارض أرضا . ومن طبقاتهم من قضى عليه بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقى الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم ، وهو الجمهور الاغلب منهم ، وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لاهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وانه لا يليق بالانسان أن يهتم بشئون العيش هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى ، وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان . ولم يخالط الا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بخرافية البلاد الهندية .

ثم هل يظن مسيو هانوتو ان التمدن الذى وصل اليه الاوربيون حمل الى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية ؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وانما جاءها هذا بمخالطة الامم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو ؟

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليـــه أوربا عنـــدما انتقص أطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، واشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبــــادة الله والاعتراف بالعمل ؟ نعم ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقتما ظهر الاسلام .

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وها هى ذى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آســيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فــارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الادران والاوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى سائر الامم الغربية لذلك التاريخ وذهب به أبلج ناصعا يبهر أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

انى أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصـــيل لا يجهـــــله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يســـتطع الا الاعتراف به .

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الاندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك ســـــبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى ارضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبل مطاردة العلم والحـــرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارىء لـــكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاســــلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به عن النجاح فى اعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة الفرنسية التى تنقاد بذكائها الى الاذكياء . والعارف بطبـاع الامم لا يعسر عليه أن يقـــودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وانما العسر كل العسر أن يوجد ذلك العارف اليوم .

ان الناظر فى التاريخ تحمر عينـــاه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الارية ليقـــاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها .

ان صح الحكم على الاديان ، بما يشاهد فى أحـوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينا نقرؤه ونفهمه ولا يغيب عنا شىء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قميصا ان يعطوه الرداء أيضا ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الايمن أن يديروا له خدهم الايسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الاب ، ويقضى عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخـــول الغنى ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصـــايا الملكوتية التى تليق برسول الهى ربانى يدعو الناس الى الانقطاع عن

هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العـالم الباقى .

هل خطر ببال مســـيو هانوتو ان يجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل، وهل رأى مثالا لذلك فى المدنية الآرية التى تآخت مع الدين المسيحى ؟ العيان يدلنا على ان شيئا من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية انما هى مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرة عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شيء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم ، واصبحوا لا يحتملون ان يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الامريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا الى القدس الشريف ينتظـــرون نزول المسيح ليستقبلوه لاول هبوط على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقـــدسة ، فان كانت هذه هى المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجـارة بل والقراءة والـكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنـــكر أيام الرومانيين ، وما كان

الغربيون لينكروا فضلهم فى ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة ، وانما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه فىنفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث، وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم ولا زالت الامم يأخذبعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورات الحياة ، أو استكمال شأن من شئونها . وقد اخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه ان الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعنى به ما يقابله .

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى أن دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الاولون . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الامم المذكورة فى الكتاب المقدس هو يعرفها ، فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين ، وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته اليها سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى ، وسنأتى على الكلام فيها .

وقبل القاء القلم اذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه انى ان

صغرت شأن هانوتو فى معارفه التاريخية فذلك لانه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ولأنه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام .

— ٢ —

تحرش مسيو هانوتو بمسألتين من امهات مسائل الدين ، القدر والتوحيد أو التنزيه . وبعد ان خلط فى بيان وجه الاشكال فى المسألة الاولى واختلاف الناس فيها قديما ، وانهم انقسموا الى فريقين : قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لا عمل لارادته فعله ، وذاهب الى ان خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال ان الرأى الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثانى يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الازلى والثانى بمذهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية ، وان الاول قعد بأهله والثانى ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الانسانية !! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين ، أى مذهبى الناس فى القدر ، وان الاولى ربانية ورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية اخذت ما ترك الساميون ، وأن الاولى ترقى بالانسان الى المقام الالهى ، والاخرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهورا بينا فى الاصل الذى بنى عليه كل منهما ، فاصل الاول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان الها بشرا ، واتصال الالهين

بروح القدس . واصل الثـانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان، ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى .

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم فى ذلك لمن له أدنى المام بمذاهب الامم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه فى شىء من ذلك بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شىء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخـلاف فى المسألة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام . ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — أتبـاع القـديس توما (١) — أو الدومينيكيين وهم جبرية وأشياع (لويولا) وهم قدرية واختيـارية ، ولـكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم ، بل لم تنبت أصـــوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه الى غيرهم .

---

(١) القديس توما الاكوينى راهب دومينيكانى عاش فى الفترة من ١٢٢٥ الى ١٢٧٤ م · وهو الذى قال بأن الفلسـفة لاتتعارض وتعاليم الدين المسيحى · وقد كان الاكوينى حجة فى اللاهوت والفلسفة · وجدير بالذكر انه اطلع على آراء ابن سينـا ، والامام الغزالى ، وابن رشـد عن طريق الترجمات اللاتينية · ومن مؤلفاته العديدة : « الخلاصـــة اللاهوتية » و « الخلاصة ضد الامم » و « مدينة الله » ·

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا) انه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتمادا على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الاديرة وبين الرهبان وعرفنا اخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة ـ ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله وهو مذهب القائلين أن الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . أليس هذا ادخل فى باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف .

***

جاء القرآن الشريف ، وهو الكتاب المنزل بالاسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » ـ بقوله « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » وأثبت الكسب والاختيار فى نحو اربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة

بنواميس الكون كما فى آية (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسألة اختيار العبد فى أفعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الامم أو فى تفريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى أفعاله مما يقر به الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الامم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما .

وجاء النبى صلى الله عليه وسلم فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذى لا يكل ، والدائب الذى لا يمل ، والساهر الذى لا ينام ، والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الانام ، هل نقل عنه انه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى إتمام دعوته قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينية تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطا ، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه حزما واحتياطا .

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الاولين وكانوا أكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار ، وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله .

هذه هى العقيدة السامية او الدعوة المحمدية او المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض لم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا

طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التطلف بالامم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها . واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية .

ولكن وا أسفاه نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به فى الارض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره .

***

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعا والله يقول لنبيه : (أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار (١) ، وهو مذهب الجد

(١) اشتد النزاع بين طائفتى القدرية والمعتزلة أيام الخليفة المامون العباسى وذلك في بداية القرن الثالث الهجرى « القرن التاسع الميلادى » . ولقد قاوم أحمد بن حنبل « ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م » طائفة المعتزلة التى كان على رأسها الوزير أحمد بن داؤد ، فسجنه الخليفة المامون ، وافرج عنه الخليفة المتوكل العباسى . ولقد اتصف ابن حنبل بشدة تمسكه بالتقاليد القديمة وكتابه يسمى « المسند » وهو يشتمل على ثلاثين الف حديث .

والعمل وصدق الايمان . واخذه عن المسلمين فى أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم المجهور الاعظم منهم .

ولكن لا انكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين ، يفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة .

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين، فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الأولى .

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آله لسلب الاموال من الطغام .

اما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لادوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القوى من الضعيف ، والعزيز من الدليل ، ولا نقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلما .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسألة القدر عند المسلمين .

والآن آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى تهجمه على الاسلام ، وما نعنى بالكلام فيه هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الاول .

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئا فى أحوال الامم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهى ظاهران فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت لا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط تبتدىء من وثنيى افريقيا وتنتهى الى بوذيى الصين وبرهمن الهند .

كلما ارتقى الانسان فى العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله فى أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لان ما لا حد له محال ان تحيط بوجوده الحدود .

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشأوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى التهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعد سقراط وافلاطون وارسطو

مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ما غشى نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ، ومن قرأ جمهورية افلاطون التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم «المدينة الفاضلة» علم كيف كان يقارع افلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التى كانت تحول تين الامة اليونانية وما ينبغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف ان تكون عليها .

و بعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه الى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت اشد بهاء وأبهر سطوعا .

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير ان رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثارا منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم تصعد بأهلها الى مشهد الوجود الاعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره ، فيرون عظيمه وحقيره سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة ــ الفاضل والمفضول ، والفروع والاصول . وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكيمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهدا على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه ، وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بأمر

مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا في الايجاد ولا في الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهى أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة في كل شئونه .

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : احدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة ويقف عندما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بأن باريء الكون يظهر في بعضها .

أما الاولون فهم الدين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان ، فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوا ما ظهر المنفرد بالقدرة عليهم ، وانهم اليه يرجعون في جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاوءا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى في شئون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لانها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون في ارضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم . ومن ذلك كانت ترتكب القبائح في هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل في محاربيها وتفترس الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل الحجرية ، وأى درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف في التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة .

أما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أو شجاعة أو صدر منه ما لا يألفون

من الاعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهرا للوجود الالهى فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، واخذوا انفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ما داموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثر من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعا فى استعبادهم . وكم قاست الامم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .
ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا انه فى ملكوته ، كملك فى جبروته ، يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى الى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلا على انه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون ، فاتخذوه شفيعا لديه يلجئون اليه فى مهمات أعمالهم ويستجدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون ، قالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووراثيهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ، وافهامهم عند خيالاتهم ، ينكرون الاوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على

ما يســـــتمدونه منهم . ولا يزال التاريخ يشـــهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده فى كثير من الامم فى الشرق والغرب الى اليوم .

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة بل يعرفها كثيرون من العــامة الذين لم ينشئوا فى جوها الفاسد .

***

اما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالافراد فى سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الالوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم انهم كانوا يســـعون فى كســب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ، ولا أن الالوهية البشرية تركت فيهم أثرا صالحا لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها ، أما السعى الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم .

أما حكمه على المســـــيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم . ولكنى أقول ان المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الارض من الوثنية التى كان النــاس عليهـــا فى عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقـــائدها من اليهــود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق فى فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعــد قرون من نشــأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين (١)

(١) الامبراطور قسطنطين امبراطور الرومان منذ عام ٣٠٦ م . أول من =

معروف عند اهل التاريخ وغيرهم ولا حاجة الى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلو فى التشبيه ، ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم ، وخسىء العقـل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد فى الامم النصرانية ، حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سـبقه ، واستقامت أوربا فى طريقها المعروفة اليوم ، وقد أشرنا الى شىء من أسباب ذلك .

لم نسمع أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثرا لاحدهم يدل على انه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مكنة له فى أن يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم فى أزمان مختلفة تصرح بأن هنالك فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر من سـلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم . واعرف أن بعض طوائف البروتستانت اليوم ، وان كانت قليلة العـدد ، تذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة ،

= اعترف بالدين المسيحى كدين قائم مثل باقى الديانات الوثنية وغير الوثنية .. ويقال ان سبب ذلك الاعتراف انه وهو يشق طريقه من غرب أوربا الى العرش الامبراطورى ، ليقضى على منافسه على العرش الامبراطورى واسمه ماكسنتيوس ، شاهد علامة الصليب فى السماء ومكتوب عليها هـذه الجملة : «بهذه العلامة ستنتصر» . لذلك أصدر «مرسوم ميلان» عام ٣١٣م باعترافه بهذه الديانة . ولقد نقل عاصمة الامبراطورية ، من روما الى بيزنطة لتكون عاصمة مسيحية خالصة . وقد أطلق عليها القسطنطينية نسبة اليه

وقد لاقيت بعضهم فى بعض اسفارى وأكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك .

وهل كانت المسيحية فى سالف الازمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتعرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم .

انى ارفع أدبا من أن اطمن فى عقائد المسيحية فى جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتى هى أحسن . ولكنى أرجع الى الكلام فى الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلا .

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه .

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناواة الاسلام وكانت أكثر عددا وأوفر عدة وأعظم قوة وأشد بأسا ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة ، فأعتقت الهمم ، وأفتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام،

واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم تكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق مسروك من مخلفـــــات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وأبرزوه للأنظار .

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه : ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون فى عــلوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ، ونقحوا القواعد، وحرروا الاصـــول . وفى مفتتح القــرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الارض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لاهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو .

انى أكتفى فيما بقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الامم الغربية اليوم : أقامت النصرانية فى الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم بعدوفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعنا فى أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لهـــا عمـــا جاءت له .

***

يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم فى ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق ان يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه — قضى الاسلام بألا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن

الرقي اليهما ــ مقام الالوهية التى نفرد بها ، ومقـام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وماعدا ذلك من مراتب الكمال فهو بين يدى الانسان ، وينالـه استعداده ، لا يحول دونه حجاب الا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره .

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع الى التقدم سبيلا . هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو ، فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفى هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والاسلام اسـلام والمسلمون مسلمون .

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم التشبيه ، وفى عوائدهم التمـويه ، وممن تعـلموا الاختراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ انا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شـبرا بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوهم الاوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أعلت الفضائل ، وحصدت الفقـائل ، وترامت بالنـاس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه

ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ،واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقــــاه هانوتو وكيمون من دين صحيح ، شرا عليهما مما يخشون من دين شوهته البدع .

يرى كيمون أن يخلى وجه الارض من الاســــــلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو ، لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المســـلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

الا فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام أن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل اسحاق تيلر وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة .

« انه يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره » .

ويأسف أشد الاسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال « انه يختار اسلاما لا سكر فيه على مسيحية فيهـــــا سكر »

ثم هو لا يزال ينتشر فى الصين وغيره من أطـــراف آسيا ، وسترشده الحـــوادث الى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته وتدرك عند ذلك الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله .

او اسلمت الامة الفرنسية بأسرها وفى مقدمتهـا مسيو هانوتو وكانت معاملتهـا لغير الفرنسيين على ما نعهده في الجزائر ومدغشقر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها ان يميلوا اليها وألا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا ، فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى اخفائهم .

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة اصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو واترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ماكانوا يحسبون فلينتظروا انا معهم من المنتظرين .

هانوتو والاسلام

الرد الثانى للامام على هانوتو وفيه بحث الجامعة الاسلامية

القت الى المصادفة نسختين من احدى الجـــرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء بها حديث بين صـــاحب الجريدة ومســـيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام .

ولم اشك فى أن كثيرا مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو ، لانه لا يصدر الا عن عارف مثـله بأحوال أوربا وكثير من احوال الشرق ، ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه يعد ظلما وجورا عليه ، خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع فى أذهان الناس أثرا لا يحسن السكوت عنه .

وقد جاء فى كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين ، وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصـــام بين أهل المقصد الواحد كما ذكر حضرته فى مقـــال له سابق . فـــلا يليق بذى غيرة على الحق الا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه فى جريدة المؤيد الفرنسية وان يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

ان كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ويعتبرون بمثال، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بمـــا جاء فى كلام مسيو هانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم انكارها، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار فى ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتمـــاد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخبال ، وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال ، وما على المتهم بحمـــاية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم فى القوة او يكون مثلهم ، فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك مع المالك لا أن يتسلى بالاعاليل ، ويلهو بالاضاليل، ويقنع بالامانى ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى ، وهو من روح قائله خلى ، حتى اذا دهموه وهو فى غفلته وأخـذوه فى نومه أو يقظته ؛ بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم، فهذا عمل الجاهل الاحمق ، وهو بالذلة والاستعبادأحق.

وهى نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبى منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من ابى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح » .

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد ، وكل عمـــل يأتيه أحـد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهـو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهى غنيمة،

وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته اشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما ان يرتفق ، والا استحال الاتفاق ، واستبدالقوىبالارتفاق، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله فى عالم الاحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض اساتذتنا فى قوله (العدل تكافؤ القوى) .

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد ان كانت لا تشتغل الا بما يجرى فيها ، اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه الا قوة الامم التى تأبى الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت فى المدنية ، وما أصلحت من شئونها الداخلية وأعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد آذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها ببرهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد ، وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له ، واطلقت له القوة ، وهى كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل من

المتنافسين عند حده . حتى يستقر السلام بينهم، وتشمل الطمأنينة نفوسهم .

وقد تألفت قوى الامم الاوربية من عناصر العلم والادب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح ، وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لان مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سـياسة الاستعمار ، وان المرسلين والجمعيات الدينية من اهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الامم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلهم، وفى فتح المغالق التى لايستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده أن يمهـدها . وهو من الامور المسلمة التى لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فـلا حاجة للاطالة فى بيانه غير انى أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أن احد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية فى تلك البلاد، وأخذ عن اساتذته كثيرا من آدابهم ، وطالع عددا من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وانها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الامة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على اصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة

على انشاء مدارس فى جبل لبنان ، يبنى التعليم فيهــا على تلك الاصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة١٨٨٤، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنسية وطلب منه أن يــكون وســيلته فى نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكى سعيه ، ثم عاد الى صاحبه وقال ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وأن الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجــزويت من بلادها ، وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لــكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعــرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك .

فان كنت تريد انشاء مدارس دينية فى بلاد لبنان كان املك فى المساعدة قريبا ، والا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده الا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لى حظ فى مساعدته . كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته .

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم ، كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق رضى الله عنه، ومستحقا للوم مسيو هانوتو ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة .

بقى على الكلام مع هذا الوزير فى أمرين : الاول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هــذه الايام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد . والامر الثــانى

سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ،حتى وصل فقد الثقة بهم الى الا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من اعماله ، وان أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث ، وغيره .

***

شأن المسلمين اليوم وظهوره دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية .

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هى عليه ، لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما ، وان ماعلق بالاوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيى الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسيى الغرب ، وقد نكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ما توهم فيها .

وانى اعرض الحقيقة كما هى لا يغشاها ستار تمويه ولا غطاء من تلبيس ، وارجو أن يكون فى هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم واهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا .

لا أنكر ان طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الاخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الارض ، وان نسمة من نفس الرحمة مرت بأنفس قليل من أهل الفضل

فيهم فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه ، وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام ، ومنهم من ينشر رايه فى كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون ولا كلام لنا فى هذر المقلدين ، وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين .

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل انسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التى يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية ، ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسدا ، وروج من الفضيلة كاسدا ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، واقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك . وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شئونهم ، ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده فى جميع وجوه سيره ، فان شاء قائل ان يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة

ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعى الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة ، وما ظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو فى المدينة من بلاد العرب « لو أن سخلة بوادى الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول الخليفة الرابع « أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ أى خشونته » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الاغنياء فى الاحسان وأسوة الفقراء فى حسن الصبر .

هكذا كان الاسلام مهمازا للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى استغراق الاحوال وتقويم الافكار ، وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغا فى دينه ، وان كان فيه ملك الارض أو ملكوت السموات ، بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ، ينساق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه .

وا اسفا !! لم يبق للمسلم من الدين الا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول على كرم الله وجهه « ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث اليوم في الاسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرا لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، واخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في اعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله .

***

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم ما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعــــد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان . ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية ما بفرضه الدين منه

معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصـــوم فى صوره أدائها ، اما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال الا القليل النادر ، اما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصـــال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمـال الصالحات فهو مع انه أهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمته ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم الا من أشخاص قـلائل منثورين فى أطراف الارض لا ترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة ، أما من ينقطعون لطلب العـلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا الى فريقين :

الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قل أفراده فى معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه الا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكى منهم وقليل ما هو ، أن ينظر فى كتب مخصوصة عينهـا له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا ، فكان همه أن ينظر اليه ويملأ عينيه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث ان يأكله الصدأ ويفسده الخبث . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأى هؤلاء ان لا شأن لهم مع العـامة ، ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، وقد ارتكبوا بذلك خطأ فى فهم دينهم لا يساويه فى سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سـوء الفهم

فى الدين ما لا حاجة الى عده ، ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق فى العلم لا يظهر له أدنى أثر فى صلاح الامة كما هو مشهود .

والفريق الثانى من يهيئه أليـــاؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق ، ان كثروا أو قلوا ، يحصلون مبادىء العلوم المعـروفة بالعـــلوم العصرية ، ثم يحصـــل كل واحـد ما به ينال المنصب الذى يعده له والده ، على أن ما يحصل أما لفظ يحفظ و خيال يحزن ، والمدار على الوصول الى ورقة الشـــهادة . ومن هؤلاء من يذهبـون الى أوربا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن اصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أو تقضى زمن العمل وجدته فى مقهى أو ملهى يسرف فى أوقاته ويفسد فى أدواته، والصالحون منهم ، وقليل ما هم ، لا يهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر فى الامة ، واستثنى منهم شواذ فى كل بلد على ضعفهم يرجى أن ينمو عددهم وتجنى الامم ثمار أعمالهم .

وهذا شأن الرجال مع العلم .

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم ما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من الفقه فانما هو بحكم العادة ، وحارس الحياء ، وقليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام، وحشو أذهانهن بالخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ،

اللهم الا قليلا منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعده الجنة ويمنيه السعادة .

أخطأ المسلم فى فهى معنى التوكل والقدر فمال الى الكسل ، وقعد عن العمل . ووكل الامر الى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه .

أخطأ المسلم فى فهم ما ورد فى دينه من أن المسلمين خير الامم ، وان العزة والقوة مقرونتان ابد الدهر ، فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم ، وان رفعة الشأن تابعة الفظه وان لم يتحقق شىء من معناه ، فان أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء ،وانتظر ما يأتى به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض الى عمل لتلافى ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه .

أخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لاولى الامر والانقياد لاوامرهم ، فألقى مقاليده الى الحاكم ووكل اليه التصرف فى شئونه ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه ، ومن رأى حزن الاباء اذا طلب أبناؤهم لاداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منها حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شىء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت الى حد التأليه ، من حيث ظنوه قادرا على كل شىء بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة الى الادبار والتخلى عنه ، من حيث أنهم تركوه وشأنه ، لا يساعدونه

فى حادث ، ولا يعينونه فى أمر مهم ، اللهم الا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذى يحسن عملا اذا ألجىء اليه بالرغم منه . ومن هنا أنصرف المسلم عن النظر فى الامور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم الا ما يمس شخصه منها .

أما الحكام ، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الامة مما سقطت فيه ، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم فى أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الاعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لاهوائهم ، واذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الاموال لانفاقها فى ارضاء شهواتهم ، لا يرعون فى ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم فى الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة الا حل بها العذاب .

هذا كله الى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى فى العقائد ، وطرق متخالفة فى السلوك ، وآراء متناقضة فى الشرائع ، وتقليد أعمى فى جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب الى نفسه ، لا ينظر الى حق ، ولا يفزع من باطل ، وانما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له فى الاسلام فى معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين فى اعتقادهم وهى بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وان ما نزل بهم من

الضر لا كاشف له ، وانه لا يمر عليهم يوم الا والثانى شر منه . مرض سرى فى نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار أو خطئهم فى فهم ماصح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالارواح والعقول ، وكفى فى شناعتها قوله جل شأنه « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم ، وضعضعة فى العزائم ، وفساد فى الاعمال ، يبتدىء من البيت ، وينتهى الى الامة ، ويمر فى كل طبقة ، ويجول فى كل دائرة ، خصوصا من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الدينى الاعمى ، فانما عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية، تبعا لهذه البدع الضالة ، على أننى لا أسلم انهم بلغوا فيه أدنى درجاته فى الامم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب .

هذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم واعمالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى فهم أصوله ، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه الا اذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجابا بين الامم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين فى أواسط القرن الماضى من سنى الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس

والهند وبلاد العرب ثم في مصر ، وكل منهم بحث في الداء ، وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوما عند الغاية ان شاء الله .

مقصد الجميع ينحصر فياستعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال أن الغرض الذى يرمى اليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد ، وازالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى اذا سلمت العقائد من البدع ، تبعتها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الافراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم الى الامة ، فاذا سمعت داعيا يدعو الى العلم بالدين فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته ، وهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها ، فان اتيانهم من طرق الادب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من ابوابها ، ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم ، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من أحداث ما لا المام لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

***

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين ، سواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الاوربيين

أو غيرهم من الامم المجـــاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا فى الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولا من خياله ، يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ، ورجعوا الى الاخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقـــويم أمورهم بأنفسهم ،واستغنوا عمن ادخلوه فى أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنـــافع التى نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد أنه غاش مغرر ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضا ، فان أهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض ، مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال ، وغاية الامر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لا ينال الا بحق ، والاجنبى الذى كان ينفق الواحد ويربح المـــائة ، يرجع الى الاعتـــدال فى الكسب ، ويحتـــاج الى شيء من التعب فى استرداد الربح ، وقد كان المسيحيون عاملين فى الدول الاسلامية وهى فى عنفوان قوتها ، والاجانب يطلبون الكسب فى أرجائها وهى فى أرفع مقام من عزتها .

نعم يعرض فى طريق الدعوة الى الـــدين على هـــذا الوجـــه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مســـلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الاقطار ، لان مرض الجميع واحد ، وهو البدعة فى الدين ، فاذا نجح الدواء فى موضع ، كان السليم أسوة للمريض فى موضع آخر ، أما السعى فى توحيد كلمـــة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو

دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل الى مستشفى المجانين .

يكتب بعض أرباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول : انه صلة بين المسلمين فى جميع أقطار الارض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى أن يفهم على غير وجهه ، فان الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضل من أعمالهم ، وفى مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم او بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الامم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير من يدعو الى عقد الولاء له وهذا امر لا ينبغى أن يدهش أحدا فان هذه الدولة هى أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد ، وتهذيب الاخلاق ، بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية ، فأى شىء فى هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو !؟

بقى الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو ان أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ،

وهو كلام صحيح ، ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون فى عصر من الاعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الامم المسيحية ، عندما كان يعزل الملوك ويحرم الامراء ويقرر الضرائب على الممالك ، ويصنع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الاعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية ، وانما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الاحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم ان أمكن ، وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم ، وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها ، وكذلك حكومة مصر انشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشىء من ذلك فى الدين ، فالسلطة المدنية هى صاحبة الكلمة الاولى كما يطلب مسيو هانوتوولكن مع ذلك لم يظهر نفعها فى صلاح حال المسلمين بل كان الامر معكوسا ، فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم امراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته فى ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذى جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شىء لديها وهو الاستقلال .

ان فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق،

وملكة انجلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معا ، فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين .

لا أظن ان مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين ، فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الاوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله .

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى حد ألا يأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ـ سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الاهرام ، ومن بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية ، لا دينية لاهوتية .

لا ادرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيوهانوتو، ومن أبلغه أخبارهم : أهم الهنود وهم فى حكم دولة أجنبية ، ولا نزال نرى فى خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من تركه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ، وثقتهم بحكومتهم أو ثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد، حتى ان الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثوذكسى ؟

هل هم الافغانيون واخلاص أميرهم فى مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ، ولا ينفى اخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها ؟

هل هم الفرس واستنامتهم الى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟

هل هم التونسيون ، وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية لمجرد انها أطلقت لهم الحرية فى دينهم ؟

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيـــده قوله انهم لا يأتمنون مسيحيا عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم ، فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقةبالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فانهم يشاركون فى العمـل مواطنيهم من الاقباط فى جميع مصالح الحكومة ، ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة من الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى، ولا نطلب على ذلك شاهدا أقرب من صاحب الجريدة الذى يحـــادثه مسيو هانوتو ، فانه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى

ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعى فى خيرهم ، كما افتخر بذلك مرارا فى جريدته ، وان كانت له هنات معروفة فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد احد من خدمة الحكومة لانه مسيحى عثمانى ؟ هل حرم احد حق المحاماة أو انشاء الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لانه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد !

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا أحسوا بعدل من انكليزى ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزى ، كما شوهد ذلك كثيرا فى شكاياهم ، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمى ، فأى دليل على الثقة أكبر من هذا ؟

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنسيين ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتمد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك .

كثيرا ما أغرى الاوربيون من فرنسيين وامريكيين من ارباب المدارس فى مصر شبابا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية ، وفروا ببعضهم من القطر المصرى الى البلاد الاجنبية ، وأحرقوا أكباد آبائهم ، ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون فى مدارس الجزويت ، وكثير من أبناء الاعيان

فى مدارس الفرير فأى ائتمان يفوق هذا الائتمان !

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا فى المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيرا من أهل الثروة ما كان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ، ويغالون فى الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟

هل يشكو عقلاء المسلمين فى مصر من شىء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالاجنبى ، من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص ، أو غش ، من صدق أو كذب ، من أمانة أو خيانة ، من قناعة او طمع ، حتى آل الامر بالناس ، الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال !! فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعنيه حضرة صاحب الاهرام وجناب مسيو هانوتو ؟!

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله ، وجدنا أن نظام الدولة قاض باستخدام المسيحيين فى ادارتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع فى الدولة ما لم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومصالحها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته ، والاحسان اليه برقيق المخاطبة

لا ينقطع ذكره من الجرائد ، وصاحب الجـريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحى ان يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى أدناه منه وقبله فى مجلسه، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين ، أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفريسيون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا وهى دولة مسيحية، ولا اظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية ، وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسية الانكليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة مسيو غلادستون، فأعقبها اضطراب فى تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ، انا نراها اليوم تتراجع ، وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون والذى احب أن يعرفه مسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها الى اليوم ، وانما كانت فى سابق الايام دولة فتح وغلبة ، وفى أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين فى شىء من معاملاتها مع الامم الاوربية .

***

امبراطور المانيا جاء الى سورية للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر

وبهر . يجيء الامراء المسـيحيون من الاوربيين الى الآستانة فيلاقون من الاحتفال ما لا يلاقونه فى بلاد مسيحية ، وينفق فى تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة اليه . أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم؟ وهل بعد المودة الا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفى بالرسميات ولا يزيد عليها ، ولكن عهد فى معاملته ما يفوق الرسمى بدرجات ، فان سلمنا ان سياسة أوربا ليست دينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هى كذلك ومسلموها تبع لها .

فان قال قائل : ان حوادث الارمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت ، وينسبون وقائعها الى التعصب الدينى ، بل يقولون ان أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب ، أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيرا من الارمن فى خدمة الدولة الى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الدينى فان المسيحين وسواهم فى الممالك العثمانية انعم حالا من المسلمين شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الاوربيون لامكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الاقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه فى أوربا لا فى آسيا .

لا اغالى حين أقول ان المسيحيين فى الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير ما يتمنى المسلمون ان يساووهم فيه ، فهل

هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الاهرام أن يروى عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، واني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر فيصورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

ليعلم مسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له الا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في احكامه ، وعليه أن يحقق الامر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه .

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع أنه خدمهم ، وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » ، فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه ، ولو اقتصر على الكلام في السياسة ، وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يتناول الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد ، وبين رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبين سوء ما جرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين ، وهو ما لا يرضاه أحد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشئونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين الا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام .

أصول الإسلام

الاسلام وأصوله

للاسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

فأما الدعوة الاولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الاكوان . وأطلق للعقل البشرى ان يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى أن خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته — كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته .

ثم قد يزيده تنبيها بذكر اصل للكون يمكن الوصول الى شيء منه بالبحث في عوالمه ، فيذكر ما كان عليه الامر في أول خلق السموات والارض كما جاء في آية : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ونحوها من الآيات . وهو اطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الاكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيرا في ايقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والارض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان في عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب . فنرى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) . (وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) . (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وامثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله في الاكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد

---

(١) رواه ابن جرير الطبري والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن أبي رزين السائل « رض » والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق مايقوله علماء الكون في أصل مادة العالم التي يسميها بعضهم السديم . وفي معنى الحديث قوله تعالى في التكوين « ثم استوى الى السماء وهي دخان » .

الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا). (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون ــ الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم ــ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وأنه لا يمكن الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

وأما الدعوة الثانية فهى التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد عليه الاسلام ، فى دعوته الى التصديق برسالة النبى عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره ، ولم

ينقطع اثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد الاخبار سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين . فاذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل اصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيـــه هو الله وحـده وليس من اختراع البشر ـ هو انه جاء على لسان أمى لم يتعـلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الامم منقذا لهم من خسران كانوا فيـه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه وهو مع ذلك من بلاغة الاسلوب على ما لم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشىء من مثله فعجزوا ولجئوا الى الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن لجـوءهم الى الـدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمـد عالمها بأضوائهـــا ، وتنشر أنوارها فى أجوائها .

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا فى نظـرهم على آخر ما تنتهى اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى : (وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله) . وقال : (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند

غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، واطلقت له حق النظر فى احنائها ، ونشر ما انطوى فى اثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق ان يأتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو اخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتى بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضىء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات .

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على ان الحق لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة الى بيان ذلك فهو أشهر من أن يحتاج الى تعريف .

الاصل الاول للاسلام

النظر العقلى لتحصيل الايمان : فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلى . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد اقامك منه على سبيل الحجة

وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد اذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الاصل بالمسلمين ان قال قائلون من اهل السنة : ان الذى يستقضى جهده فى الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . فأية سعة لا ينظر اليها الحرج اكمل من هذه السعة ؟

الاصل الثانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : اسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل ان انتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل اخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما اثبته العقل .

وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه إن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا

الفضاء ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم ارض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وابعادها .

الاصل الثالث

البعد عن التفكير : هلا ذهبت من هذين الاصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد احكام دينهم وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رايت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به ان يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار .

الاصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الاصل الاول في الاعتبار — وهو الا يعول بعد الانبياء في الدعوة الى الحق على غير الدليل ، والا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات — أصل آخر وضع لتقويم ملكات الانفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح أعمالها في معاشها ومعادها — ذلك هو اصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم . فمما جاء في الكتاب العزيز مقررا لهذا الاصل : (لقد خلت

من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا ـ فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ـ (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ .

فى هذا يصرح الكتاب ان لله فى الامم والاكوان سننا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع او نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . ما لنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادى به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع ان ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبنى عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت او يونانية أو رومانية ، او غيرها ، فى أى لباس وجدت ، وفى أية صورة ظهرت ، وتحت اى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف

أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ مانطق به العرب من منظوم ومنثور، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند النظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المســـــلمون الاولون ــ ركبوا الاسفار ، وأنفقوا الاعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين الا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه. بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه (١) متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به واما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا (أو آراميا). وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية الا انجيل متى ، فيما يقال . الا ترى ان اسم الانجيل نفسه يونانى ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظمهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

الاصل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الاسلام انتقل اليه ــ وما أجله من أصل ــ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها .

---

(١) أى قيد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به الى الله الاشتغال بعلم غير دينى صالحة كنفع الناس به .

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا اثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الأسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه على أن الرسول عليه السلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى : « فذكر انما أنت مذكر ﴿ لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لاحد من أهله ان يحل ولا أن يربط لا في الارض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم ـ مهما علا كعبه في الاسلام ـ على آخر ـ مهما انحطت منزلته فيه ـ الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : « وتواصلوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ـ وهم المراقبون عليها ـ يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته او يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكل مسلم ان يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله
من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف
وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله
للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها وأحوال
العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن
النبي صلى عليه وسلم . وما وقع من الحوادث وقت
نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار .
فان لم تسمح له حاله بالوصـــول الى ما يعـده لفهم
الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يســـأل
العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على
ما يجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في
حكم عمل من الاعمال .

فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية
بوجه من الوجوه .

السلطان فى الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد فى ظاهره أمره بحكم يجرى عليه فى عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلابد أن تكون فى واحد وهو السلطان أو الخليفة . الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى ان يكون من العلم باللغة العربية وما معها ــ ــ مما تقدم ذكره ــ بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والامة معا .

هو ــ على هذا ــ لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل ،

وكثرة الاصابة فى الحكم (١) ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليـــه واذا أعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه (٢) « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٣) فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٤) .

فالامة أو نائب الامة هو الذى ينصـــبه والامة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتهـــا فهو حاكم مدنى من جميـع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظـــر أن يخلط الخليفة عنـــد المسلمين بما يسميه الافرنج (ثيوقراطى) اى سلطان الهى فان ذلك عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله فى رقـاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحمـاية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن ما دام مؤمنا أن يخالفه ، وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ،

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، الم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لانه فى رتبة المستفيد .

(٢) من شواهد ذلك قول الخليفة أبى بكر رضى الله عنه فى خطبته « وان زغت فقومونى » .

(٣) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤) مثال ذلك أن يكون له عصبية أقوى من الامة يخشى ان يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

لان عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى اى مظهر ظهراهما دين وشرع ، هكذا كانت سنطة الـكنيسة فى القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه .

كان من اعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والإعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الاعم عندهم .

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من انه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد . ويظنون ان معنى ذلك فى رأى المسلم ان السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والايمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالاخضاع وفى العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الامتاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا ان سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله ان اقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك ان هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت ان ليس فى الاسلام .. سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير والتنفس عن الشر ، وهى

سلطة خولها الله لادنى المسلمين ليقرع بها أنف اعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » ان مسألة السلطان فى دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد .

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الاسلام ؟ واقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على ايمان أحد او عبادته لربه ، او ينازعه فى طريق نظره .

الاصل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنة : قالوا ان الدين الاسلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايمان فأدر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة

العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبه الصديق ، وانما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء ، لكن فى ملكوت الله كل شىء مستطاع ولا شىء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟ ليس القتل فى طبيعة الاسلام بل فى طبيعة العفو والمسامحة : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق واهله الى ان يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الاسلامية ما تسمعه فى الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قبل الشيوخ والنساء والاطفال (١) .

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال ان العناية الالهية منحت الاسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل . فتيسر له فى شبيبته ما لم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته .

---

(١) لعل مايحدث اليوم فى الجزائر من الفرنسيين وفى كينيا من الانجليز خير شاهد على ذلك .

في الحرب والسلم

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك احرار لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة . وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال ، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنبي عن ايذاء أهل الذمة وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » و «من آذى ذميا فليس منا» (١) . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام، عندما بدأ الضعف في الاسلام ، — وضيق الصدر من

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث في الصحاح والسنن وايذاء الذمي والمعاهد محرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه ، خاصمته يوم القيامة » .

طبع الضعيف ـ فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويختلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن اخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا .

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لانه جاء ليلقى سلاما بل سيفا ، ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه (١) والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : «وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » فهو فى اشتداده على المهدين لامته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم

---

(١) هذا نص انجيل متى فى هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ـ ٢٥ و ٢٦ « وقال لهم « يسوع » ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وامه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذ . وفى الباب ١٩ من هذا الانجيل مانصه « ٢٧ اما أعدائى اولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامى » وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك فى القسوة على الاهلين والمخالفين وعلى سائر المحاربين . قال فى ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع « واذا غواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا اباؤك . آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من اقصاء الارض الى اقصاها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله . الخ »
=

وبثت ، بل يأمر الاولاد المؤمنين أن يصـــحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الامم والطوائف التى يغلب على أرضها بشىء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيها الا ضمائرهم . ومن جهـــة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى طبيعته ان يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم ، وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وان كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة .

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضـــل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الارض أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شىء من عمله ، الا

= وفى سفر التثنية أيضا « ٢٠ : ١٠ ـ ١٦ » مانصه « حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها الى الصلح فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الذى أعطاك الرب الهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الامم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما »

ان يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الاصل السابع

مودة المخالفين في العقيدة

المصاهرة : أباح الاسلام للمسلم ان يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتهـا ، والذهاب الى كنيسها أو بيعهتا ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، والزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بنائه ونبيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين في حقـوق الزوجية ، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى« ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقـوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهي كما هي . وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج واقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد في طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الاولاد واخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح ، الذي

لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقــرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد عــلام الغيوب ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجــاهل ، وينصح الغــاوى ، ويرشــد الضال . لا يكفر فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء .

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التى أفاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعودالاحتمال، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل ان يرى بجواره من يعمل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم ، أو قاعدة لصناعة ؟ ان كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد، أو يميل الى رأى غير الذى يجد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟

ولو ذهبت أعد ما فى طبيعة الاســـــلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لاطلت على القارىء أكثر مما أطلت . ولهــذا أرى من الواجب على ان أختم القول بذكر اصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الاصل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصحة : الحياة في الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبـــد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهى مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحـرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه فى ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما تملك واتبعنى » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال « الثلث ، والثلث كثير ، انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

الرخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشى منه الضرار أو عرضت مشقة فى تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة الا به الا اذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعدا .

السعى الى الجمعة واجب الا اذا كان هناك وحل غزير ، أو مطر كثير ، أو ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط. وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

الزينة والطيبات : اباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ❊ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده الطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ❊ قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » (سورة الاعراف) .

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويبهج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ❊ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ❊ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ❊ ان ربكم لرءوف رحيم ❊ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » ثم قال « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » سورة النحل .

الاقتصاد : ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ❊ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » سورة الاسراء .

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ❊ ان الله لا يحب المفسدين » سورة القصص .

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذى جمع للانسان أجزاء حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه الى أن يطلب مقامه الروحانى . أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله ; هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ، قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » الى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذا أو تظنه نافعا .

وليس فى الفريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى الى غاية لا مطـــــلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف .

❊❊❊

فاذا جميع سائق الانفس ومزجيها ومرشدها وهاديها، بين شاحذين ، شاحذ المتمتع بمتاع الحياة الدنيا ،

وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة . فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهـــون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب أرض ولا تكتفى عن الـكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها ، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها الى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهـواء ، والبحث فى المـاء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معرفة مواقعها وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوسـها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم . ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده أما للنجاة من ضرورة واما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهى الدين ما يصده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة أين هذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تجول بينه وبين ملكوت السموات ..

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح لخدمته فى توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه الى ان عالمه انما خلق لاجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ؟ انظر الى لطف الاشارة فى الآية المتقدمة « قل من

حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم .

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب مايكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم — فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأى لسان فاذا لاقاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى اى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب) ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمون القول فيتبعون أحسنه) .

ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا ، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » (١) أن كان فى سند لفظه الى النبى صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه ، فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل . والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل . وابن عبد البر فى العلم . والخطيب فى الرحلة . والديلمى فى مسند الفردوس . وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا .

ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

لا شيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وان كان فى أول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم اولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هي أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضرورات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال امام جليل من ائمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى ان يكون الا لله » .

نتائج هذه الاصول

الى أين افضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان اثرها فى أسلافهم الاولين ؟ فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية اخرى ، والاسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من بقايا ما تركت الازمان الاولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض اهل العلم أصغى الى مذكراتهم ثم اشــــتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته واطبـــائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحـــد فلاسفة الغربيين : (ان المحبة التى نشأت بين عمر بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الافكار الحرة والرأى العـــالى ،

بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاســــــتعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع) .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم فى أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الافكار بالافــكار ، وأفضت سماحة الدين الى أن اخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع .

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبيّة والعقلية

اشتغالهم بالعلوم الادبية

بعد ۲۰ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علی بن أبی طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فی ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وان كانت الحروب الداخلية التی اشتعلت نارها فی أطراف بلادهم للنزاع فی أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شیء من مصالحهم ، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فی الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فی خلافة بنی أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فی مثل مدتها ، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فی آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .

نقل الخلفاء الامويون دار الخـــلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمة الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش، يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معادية فى ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وانما تناول مباحا ، وتمتع برخصة آتاه الله اياها ، ولا يخفى ما فى ذلك من ترويج فنون الابداع فى الصنعة على اختلاف ضروبها .

اشتغالهم بالعلوم الكونية

انقضت دولة بنى امية والناس فى ظلمات من الفتن كما قلنـــا ودالت الدولة لبنى العباس واستقرت فى نصابها من آل بيت النبى قرب نهـاية الثلث الاول من القرن الثانى للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية ايضا ، واخذ المنصور أيضـــا ينشىء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه فى تعلم العلوم الفلكية ، واكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وامر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ،

ونالت به اكثر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث ان يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس فى الرياضة السماوية فامر المأمون فى الحال بترجمته وسموه بالمجسطى ، ولا يسـهل على كاتب احصـاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافهـا فى دولة بنى العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

انشاؤهم دور الكتب

وقد اخذت دول الاسلام تعتنى بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى فى القاهرة فى أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد ، منها ستة آلاف فى الطب والفلك لاغير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (أحداهما) من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وانه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرونز . ومكتبة الخلفاء فى اسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) أربعـة وأربعين مجلدا . وقد حققوا انه كان فى اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

وبعض الخـاصة كانوا يولعون بالـكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا أندلسيا ليزوره فأجابه ان ذلك لا يمكنه

لان كتبه تحتاج الى اربعمائة جمل لتحملها وهو لايستغنى عنها كلهـا . وكان حنين بن اسحاق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لانها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الاقطار : فى المغول ، فى التتار ، من جهة المشرق . فى مراكش ، فى فاس ، فى أسبانيا من جهة المغرب .

وكانت طريقة الاساتذة فى التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه ما يريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقـالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شىء مما كتب صاحب الكتاب ، غير ان مؤرخا واحدا رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه الا ينشر منها شىء الا باذن ، على انى لا أعلم شيئا من ذلك وقع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما .

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسـلامية : يقول : (جيبون) فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق

وفى العرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى اغلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من اثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لاحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع الذى يصرف فى شئونها خمسة عشر ألف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة ، وابن أفقر الصناع فيها ، غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » .

انقسمت الممالك الاسلامية فى زمن من الازمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والامويون فى الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون فى مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصورا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والادب ، وكان مرصد سمرقند قائما فى ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد فى الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الادراك .

جميع المدارس فى البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى

القاهره ، وكان من أشد النظامات وادقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز فى الامتحان على شدته ؛ وأول مدرسة طبية انشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى أنشأها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى اشبيلية من بلاد أسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الادبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والاساطير الخيالية ، فى الاحوال الاجتماعية ، وابتدءوا بأخذ العلوم عن اليونانية والسريانية ، واخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة ، وكان مترجموهم فى أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى ، وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها . وكان المعلمون لابناء العظماء فى أول الامر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين . كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب واكتشافها

كان علم العرب فى أول الامر يونانيا ، ولكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العربى أن يكون تلميذا لارسطو وافلاطون أو اقليدس

أو بطليموس زمنا طويلا كمـــا بقى الاوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى .

قالوا : ان (باكون) هو أول من جعل التجـــربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو اقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، واطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق فى أوربا وأما عند العرب فقـد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة .

أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة، والا يكتفوا بمجرد المقـــدمات العقلية فى العلوم ما لم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عنـد العرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الاوربى الى ما بعـد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « اقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الاســاتذة تـكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المال .

قال (ديلامبر) فى تاريخ علم الهيئة « اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك ان تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور » وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب . ولهذا عدت الـكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى

من اصدق الادله فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف .

والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الفرض .

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية .

ولا يمكنني فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا مازادوه فى العلوم على اختلاف انواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لابناء الامة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكننى اذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (١) .

« تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والاصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى

(١) هو الفيلسوف في درابر الامريكاني

المعادن في اشكالها . قال الخازني اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب في الاشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا انه مر في صور معادن أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هـذا انه تقلب في صور الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » .

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع اســتقامة الدين » .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حـرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذي يبقى هو ارواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الانواع دون الاشــخاص فانه قال كما قال أرسطو وغيره : أن الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهي باقية لا تزول : وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه كمـا اخطأوا في قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما يعرف ان الاسلام لا ينافي العلم وانما ينافي هذا الضرب من الوهم ، الذي لم يسقط فيه أحد

الا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الراى أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا أنكر نسبته لونسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فان فى كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذى أعدت له . وليس فى الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل ـ فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفى معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربى والادب المحمدى عندما دخلا الى ايطاليا ان البابا كان غائبا لان كرسيه كان قد انتقل الى فرنسا فى افنيون نحو سبعين سنة فذب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثانى عشر وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن اسبانيا » اهـ .

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحى اثنى عشر قرنا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا » .

هذا النماء والزكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحم الخلفاء وأعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الارض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد » .

تشجيع العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم أنهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة ، وقد عرفه التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور او السنين ، لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبدا .

كان أهل العلم والادب عامة يجدون من الاحترام عند

الخلفاء والامراء والخــــاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم . وأضرب المثل بالشيخ أبى العلاء المعــــرى ؛ لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر على بن يوسف القفطى ان صالح بن مرداس ـ صاحب حلب ـ خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلمــا أحس أهلها بالغلب ، سعوا الى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الامير ـ أطال الله بقاءه ـ كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، فاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئا من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتا فيه ، فترحل صالح . فانظر كيف وهب الامير بلدا عضى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاســـفة عند الامراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف .

ازالة شبهتين

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم فى آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم اياهم بالالقاب ، بل واحتقارهم

فى بعض الاحيان . وهذا النوع منه عنـــد المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع ـ ممن يكره أهل العلم ـ لا تخلو منه أرض ولا تظهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهمـــا بلغ ذوق العلم من نفـــوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الـكاثوليك الى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة ، ويكتبون ما يوهن قواعدها وقـــد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه . ويرون أن النظر فى كتبهم لايجوز فى شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عنـــــد المسلمين أيام كانت سوق الفلسـفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد فى شىء ، وانما هى نفرة الانســان مما لا يعرف ، مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله الى حيث يشاء .

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا ان بعض أرباب الافكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : ان كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العـــامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر السياسة للدخول فى الامر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه . مع أن غيره

---

(١) ذكر امام الحرمين فى كتابه « الشامل » فى أصول الدين أنه كان بين الحلاج والجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة ، وان ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج .

فى غنى عما يراه هو حقا له ، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام ان أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع ، صونا له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . الم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ والا ينشأ شيء منها الا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة (١) ولكن هل يسمى هـــذا اضطهادا ؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها فى أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبا أمره ، بكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيهـــا للتدريس الفقيه والمتــكلم والمحدث والنحوى والمتأدب والفيلسوف ، ومن مجلس الحديث الى مجلس الادب ، واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها فى الاقناع والالزام ، وسقطت قيمـــة الغــلو فى التعبير ، وأخــذ التسامح بنهم مأخذه .

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو

---

(١) أغرب من هذا أن أحد الاساتذة فى جامعة أمريكية قرر فيها نظرية داروين المعروفة فأنكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة

كل ذى منزلة عنده . حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياك يا عمرو ابن عبيد » فانظر كيف كان لامام من ائمـــة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤســاء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا ؟

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين اخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهــاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه الا أن بنظر فى أحوالهم فيقف لاول وهلة على أن الذى اثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن الغيرة عليــه ليست هى الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وانما تجد الحسد هو العامل الاول فى ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقـــة وان لبسوا لباسه . وانمــا ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليـــه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا .

هذه طبيعة الدين الاسلامى عرضت عليك فى اهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها فى العـالم الشرقى والغربى وهذه سمة فضل الدين وقـوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لاولئك المخـالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسـه أن ينـكر الضوء الباهر ؟ أفلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، ان لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه اليه ، ويجور ، كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟؟

الإســــلام
فى أوائل القرن العشرين

الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى وانه لم يقــــع من المسلمين الاولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومى العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ افلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلامية غير البلاد المصرية (١) كتب مقـــــالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية. وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا ــ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ــ فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الاثواب العبـــاعب ؛ وقالوا : انه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ؛ ثم رفع أمره الى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن !

(١) هذا الرجل هو السيد عبدالحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله

فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يامر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدي عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الامر هناك ايضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ؛ ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الاكل والشارب .

الم يسمع السامعون ان الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الازهر الشريف (١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكى .

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات

---

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف .

الطويلة الاذيال الواســعة الاردان ، فى اسهجان ادخال علم تقــــويم البلدان (الجغرافية) بين العـلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الازهر ؟ وكان كتاب تلك المقــالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وانه يريد الغض من علوم الدين (١) ألم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير الى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وارادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم يحمل الينا الرواة ما عند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقـــــديم ، والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الاقربين ، واقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم اصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعـــاقبة بقطع بعض الاعضاء فى شرب الدخان ، أو بالقتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وأن أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

ثم الا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغى لطـلبة الازهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ الا تقوم قيـــامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هــذا عدوان على الدين . هــذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى الا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة الا الصقوه بهذه البدعة فى زعمهم .

---

(١) يعنى الاستاذ بها نفسه فهو الذى اشار بتعليم هذه العلوم .

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال انها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الامراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الامم ، خصوصا عندما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقى ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهى (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار .

اللهم الا فئة زعمت انها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الاحاديث ، لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين ، وان أنكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات الى ما تقتضيه الاصول التى قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء (١) .

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء

---

(١) انه يعنى بهذه الفئة الوهابيين ، فهو يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الاثر ، على آراء البشر ، ولكنه ينكر عليهم ضيق العطن دون العناية بما أرشدت اليه النصوص من علوم الاكوان ، ومقدمات المدنية والعمران

فى فهمها . واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيهـا أحجموا عن ابداء الرأى ، واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقها الى أن تتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية واراد الالتحاق بأحـد الاروقة فى الجامع الازهر فوقع الشك : هل بلده مما لاهله اسـتحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقـال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شرط الواقف . فقال : اننى لا أقتنع بما فى تلك الكتب ، وانما الذى يصح ان آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله . واذا قيل لاحدهم : ان الائمة أنفسهم لم يعبنوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر وبيـان الحدود التى ينتهى اليها ، وان أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا .

واذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملـكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، والفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بـكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى أسباب ما كان سلفكم

عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ! قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لانه آخر الزمان ، وقد ورد في الاخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وان الاسلام لابد أن يرفع من الارض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات واحاديث وآثار تقطع الامل ، و لاتدع في نفس حركة الى عمل ؟!

رأى رينان فى الاسلام

هذا الجمود ــ الذى لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الافكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتابا ــ هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور أن يقول فى عرض كلام له فى تساهل المذاهب الدينية مع العلم ، نقلته عنه الجامعة « على أننى أخشى ان يثبت الدين الاسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ، ولكنى أعرف ان فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة ، الا أننى أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء ، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامى . ذلك انه من الثابت الآن أمران ــ الاول : ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الاديان بالمرة لانها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثانى : انه لا يطيق أن تكون اديان عثرة فى سبيله . فعلى هذه الاديان أن تسالم وتلين ، والا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الاسلام ، بأنه عثرة فى طريق

المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا فى سعيهم ، او نجاحا فى أعمالهم ؟ من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعـــــة الدين ؟ ومن أين بكون ما سردناه من الحوادث ان لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه . أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه . وأحد هذه الامور كاف اذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وان يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

الجـــواب

أقول هـــذا كلام فيه شبة من الحق ، ولمعـــة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فان حملة العمائم انما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخـــوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عـدواه فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربمـــــا تسرى العدوى من الدين الى غير الدين ــ الى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) .

فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفـكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال

يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيهـا السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السـياسة ، ومن ساس ويسوس وسـائس ومسوس .

يدلك على أن العقوبة سياسة أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل ان هذه السياسة من الدين ، فانى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا اجمعين ، ان هذه السياسة من أبعد الامور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم (طلعها كأنه رءوس الشياطين * فانهم لآكلون منها فمالئون منهـا البطون * ثم ان لهم عليهـا لشربا من حميم * ثم ان مرجعهم لالى الجحيم * انهم الفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون) .

جمود المسلمين واسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب الى الاسلام ، وقد رأيت صورة الاسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع اليه شىء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره . وانما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقـائد أخرى ساكنت عقيـدة الاسلام فى أفئـدتهم ، وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم وأطفائها لنور الاسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين ـ هو السياسة .

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفي على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الاولين ، وأدال منهم خشارة (١) من الآخرين ، لا هم فهموه فأقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء الا كما يكون الجهل من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم .

انظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله ، كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم اخطأ خليفة في السياسة فاتخذ عن سعة الاسلام سبيلا الى ما كان بظنه خيرا له . ظن ان الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى . لان العلويين كانوا الصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهما من الامم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا .

---

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الرديء وما لاخير فيه من كل شيء . من خشارة الشعير وهي ما لا لب له وخشارة الشمر وهي رديئه والنسيص منه . وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقى .

خليفة عباسى اراد ان يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الاجنبى واقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن الا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسـلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ؛ ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل الهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمـكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ؛ ومنهم من تولى أمره

أى عدوه لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العـلم وصديقه الاسلام ميلتهم أما العلم فلم يحفلوا بأهله . وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلمـاء وأن يتسربلوا بسرابيله . ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ؛ أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الامم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العـامة بأن فى ذلك تعظيم شعائر ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ـ وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا

هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من من عبادة الاولياء والعلمـــاء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، واركس الناس فى الضلالة وقرروا ان المتأخر، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفـكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا اعوانهم فى اطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وان كل ما هو من امور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو معرض لمـا لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الاعمال ، واختلال الاحوال ، ليس من صنع الحكام ، وانما هو تحقيق لمـا ورد فى الاخبار من أحوال آخر الزمان ، وانه لا حيلة فى اصلاح حال ولا مآل ، وان الاسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الالفاظ لبعض الاحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الاوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الاطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للأيدى عن العمل . والعامل الاقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى ــ امور اذا اجتمعت اهلكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس

الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال .

هذه السياسة ــ سياسة الظلمة وأهل الاثرة ــ هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات ، فجل ما تراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام ، وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شيء آخر سموه اسلاما ، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون ، وانهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفى لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت انه علة لابد أن تزول .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بياناتها ، وانما يحسن اجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الارض ، ويصعد به الى أطباق السماء ،

ليقف به على اثر من آثار الله ، او بكشف به سرا من اسراره فى خليقتـــه ، أو يستنبط حـكما من أحكام شريعته ؛ فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين . وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة

اول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العـــربية واساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحـــاجة دينهم اليها ـ أريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون انهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ـ يساوون من كانوا عربا بسلائقهم . فلما لم يبق للمتأخر الا الاخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطئوا نظرهم وأعموا أبصارهم ، وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأية حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك

العرب الذين كان ينظر الاولون فى كلامهم .
وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول ، بل ولا بما كان يحف بالقـــــول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته فى تحصل اللغة بمقـدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وان لم يصلوا منها الى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الاولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الاولين رضى الله عنهم ، واصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الام للشافعى رحمه الله تعالى أو بعض كتب الامهات فى فقه الحنفية كطـالب المصحف فى بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب فى قطر وجزء الآخرة فى قطر آخر . فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاســـتفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد فى الاخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع وان هذه الامة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك انه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى

ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعنـــاه الى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الامة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختــلاف وتفرق المذاهب والشيع فى الدين . كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف افهام الافراد ، وكل يرجع الى أصل واحد لا يختــــلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود فى بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب آخر . واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رســول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كانت حروب جدال بين ائمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم فى بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذى ينتسبون اليه . يضلل بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن . ولكنه الجمود ، قد يؤدى الى الجحود .

كان الاختلاف فى العقــائد على نحو الاختلاف في

الفتيا تخالف أشخاص فى النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ،مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ــ دور السياسة ــ أخذ المتخالفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلف فى أكثر المسائل لفظى . وانما هى الشهوات وضروب السياسات . اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الامر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل (١) من عدة سنين : انه ينبغى ان يعين القضاة فى مصر من اهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين،وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ما وراءه . أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية .

ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة أو الاهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اهمالها : كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها . وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها .

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسبه الى من لا يعرفها. وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل باحكامها ؟ فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لانهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك فأجاب ان تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون الشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا . ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها احياء .

تعلم ما وصل أليه الناس من فساد الاخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه نى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : أما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض فى معرفة الحلال والحرام وليس المسئول باعلم من السائل وكلهم جاهلون . وأما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو اذا سئل يقرا كتابا او يسرد عبارة يصعب علي السامع فهمها وعلى المتكلم أفهامها . وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل بنفسك الى ان تفهم الغرض من قول امامك فتجد لا صلة انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله أو قول من جاء بعده من اتباعه — قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد الا شيئا الا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يدا بيد ،ولو بعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه ثم اذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وانك تدعوه الى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى .

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الاعمال ، خصوصا عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث

والتوحيد ، فقال لى : انه لا فائدة فى ذلك قطعا ، وهو تعب فى غير طائل . فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى . فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهى لغوا .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ ولم ينظـــر فى الوسيلة الى اقتلاع هذا الفساد ، مع ان الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل الى اصلاحه ، هذا كله لانه لم ير نفسه أهلا لان يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الاوامر الالهية التى وردت فى النصيحة والتآمر بالمعـروف والتناهى عن المنكر ، وان اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو ان هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه .. كاد يظن ان قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عمـا تعوده نوعا من الاخلال بالدين . وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا فى سبيل الله .

اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ولم يكن بأيدى الطلبة الا الاقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفـــواه أساتذتهم . قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر

فى عمله ، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، واشد ضررا منه الجمود فى العقيدة : نسوا ما جاء فى الكتاب وأيدته السنة من ان الايمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الاخذ فيه بالظن ، وان العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك (١) من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وان العقل ان لم يستقل وحده فى ادراك ما لابد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم الى أنه لابد من الاخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا

---

(١) يعنى أن الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل ـ وفقا لنظر العقل على التصديق بان الله أرسلهم ، فهو لايكون الا بعده • وهذا قطعى بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، وأما الناشىء فى الاسلام فلا ترتيب عنده فى ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وادلتها العقلية من القرآن مباشرة •

لكل اعتقاد ويااليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة ، لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقـــلدين الى اميهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وان لم يـــكن فى حق الامر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم .

انجر التساهل فى الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقــــة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فنجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن انه أهل للأخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث ، ما ترتفـع الاصـوات بالشـــكاية منه من حين الى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الاول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عنـــاء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه اقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف ـ وما اكثر

عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غدا ان شاء الله .

سأل سائل الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته — فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن ان المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل : ان الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما أعوج منها ووكلت الى اناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغـــرس ، ولا تجنى الامم منه الا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حـكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليــه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح فى وجهه (ما ســـمعنا بهذا فى آبائنا الاولين) ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الامور وأشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين واذا دعى الى ترك المنكر نفر وزمجر وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم فى الاستبراء من البول على مراى من

المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون .

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من مقلنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدى منذريه . ولو شاءوا لا قبل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو الا ان يرجعوا الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة أما فى مدارس الحكومات الاسلامية واما فى المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها . لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فانى لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم فيه خيرا وارجو ان يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الاوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامى وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وانما اتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم أباحتا للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامى وأباحتا لغير آباء هؤلاء التلاميذ أن يسكتوا والا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جمود تلاميذ المدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميذ ان كانوا فى مدارس اجنبية لا اثر لتعلم الدين الاسلامى فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسرى الى عقائدهم شىء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مرارا ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوا من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لاولئك الآباء شىء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسير لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شىء صعبا وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم

من حيث لا يشعرون . وياليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الادب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الامم ، أو كما يروجه بعض من لا يريدون الخير بها ، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم الا زاجرا عن خير أو دافعا الى شر ، فاتخـذوا الاههم هواهم وامامهم شهوتهم ، فهلكوا ، وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصيح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير ممـا يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم .

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والاهلية

اما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسـمية للتعليم الدينى فيها شىء من البقية فهؤلاء ينشئون على شىء من المعارف في الفنون المختلفة ، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الارضى أو فى الاجتماع الانسانى ، ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهـو جـامد على ألفاظ سمعها ، فلو سمع شيئا غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيهـا ما يسرك وينصرك على نفسك مادوما بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع اليها فى سير الامة وسياسة

وخصمك ، حار لا يدرى الى أى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيث وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبا ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آدابا فى غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون الى ذلك أى طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فانما ينثر الالفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ، ولا الى علم صحيح ، ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذى يؤدى الى المفسدة ، وهو يشعر — أو لا يشعر — على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال جملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم ما دوما بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع اليها فى سير الامة وسياسة افكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمـــود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفات السابقة . ولن يبقى الكلام فى انه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث ــ مرض الجمود على الموجود ــ وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهمـــا عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة الى اعادة ذلك .

ثم اننا أشرنا أيضا الى بعض الاسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام ، وأن محدثها اما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه واما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا . وهذا الثانى كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سعته الاولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله الى ما ذخر لهم فيه ؟؟

جاء فى الكتاب المبين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ــ هو القرآن

الذى (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آيات قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الامر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لاشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى أقاموها دونه ولابد أن تتمزق كلها بايدى أنصاره . فيتبلج ضياؤه لاعين أوليائه . أن شاء الله تعالى .

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع ورأن على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الاباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بانهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لانفسهم من السفه وطيش الحلم وهو يعلمون .

هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بانهم مسلمون، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شىء كما قدمنا .

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا ، وضيقوا على انفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم . فقد قص عليهم سير الاولين ، وبين لهم ما انزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ــ احل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، واورث غيرهم ارضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ،السائرون على اثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدواء يفيقون من سكرتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم الى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون انفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون الى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : ان الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدا ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ،

---

(١) فى الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما

وستكون المدنية من أقوى انصاره متى عرفته وعرفهـــا أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقـوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض اناس للـكتاب ينصرونه ، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع الى موطنه الاول فى قلوب المسلمين ويأوى اليها ـ العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون ـ كما يقول بعض أعداء القرآن : ان الزمان قد أقبل على آخره ، وان الساعة اوشكت أن تقوم ، وان ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، انما هو اعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الي العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لاعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) .

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهـــرفون بمالا يعرفون . ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذى مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (اى الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاما ، وانما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وأن آيات الله فى الكون ـ وان كانت تدل

على أن ما مضى على الخليقة يقــدر بالدهور الدهارير ــ تشهد بأن ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنســــــبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمننا كهذا لا يكفى ــ وقد تبين أنه لم يكف ــ لاهتداء الناس كافة بهديه . ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقــائد الباطلة اعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به الى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من اسرار العالمين ، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، واخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقــوله : فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر

عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى اذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته. وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت اذ جبهت (٢) معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفه ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته » (٣) .

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ، فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطنى (الوجدان أو القلب (من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك انك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك والمك ونحو ذلك .

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى

(٢) جبهة ضرب جبهته ورده .

(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد مايدل على أنه موضوع على « على كرم الله وجهه » .

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والاسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبــــات ــ والوجدان لادراك ما يحدث في النفس والـلذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس واذعان ونحـــو ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين تقع على القريب : وأخرى تمد الى البعيد ، وهي في حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالاخرى ، فالعـــلم الصحيح مقســوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم .

والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان . فاذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت احدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الاخرى ، ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انسانين ، والوجود الفرد وجودين .

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك ، فنقــول ان هــذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكني أقول : ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الامرين ــ اما أن يقينك ليس بيقين ، وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علما وما هي به ، واما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت في مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هي منه في شيء .

لابد أن ينتهي أمر العالم الى تآخي العلم والدين ،

على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الاعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الالهية فى التدريج (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * انهم يرونه بعيداً ونراه قريبا * أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين .

الإسلام ومدنية أوربا

تمهيـــد

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالامر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحى فى أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامى دليل واقعى على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة » .

ليس من السهل على أن أعتقد أن اديبا كصاحب الجامعة يقول هذا القول ــ وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية ــ وانما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الايدى عن الشر بوسائل القهر كرما ؟ هل

---

(١) كلام الجامعة فى نقد الاسلام كان [illegible] أربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفى هذا المقال [illegible] الربع .

تعد مساكنة جناب البابا للملك ايطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية ــ فى عاصمة واحدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الاجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا ، لانه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الاليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل اوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين ــ تسلاها من العلم مع الدين ، لا تسامحا من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبها .

اقتباس اوربا من مدينة الاسلام
السبب الاول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات واحزاب ، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى . ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة . وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الاندلس ، وتبع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعدادا

من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التى تؤدى الى المدنية التي كانا يحملانها. هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشتدادهم فى استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الانسانى يتلمس السبيل الى الخلاص ، واذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لاهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولاهل الافكار المستقلة ، فى أدنى الاشياء وأعلاها ، حتى انه عندما شرع ملوك فرنسا فى فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذى وجدوه فى مدينة قرطبة ، وصدور الامر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسس القديس انطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الاولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بأن توضع فى أعناقها أجراس . وقالوا أن الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصة الجرس فى عنقه .

لقائل أن يقول : ان القسس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الاجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى اجراس الخنازير كان يظهر من حين الى

حين ، الا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدنية التى يفتخر بها الاوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك .

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون اليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، الى أن ظهر دعاة الاصلاح الدينى « البروتستانت » فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم . وكان منهم « ايراسم » الشهير ، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التى تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل ايراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا أن تأمن من عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لافناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت

من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الافضل لكل طائفة أن تمنح الاخرى من الحـــرية ما لا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقيـة الآداب ، وكان من أقـوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص ، من اية طائفة كانت ، من هذا نشأ ذلك الاصل العظيم : أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجـة بى الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم، وانما انبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ، وانما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضـوعا ، ولو شاء ألا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤســاء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة واقـدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤســاء دين من الاديان ، وهم مع غلوهم فى الدين واشـــتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفـــوس ، كانوا ولا يزالون

يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم اشـد الناس حرصا على تقويم اركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة فى نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه . والامة الفرنسية ـ التى كانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من اشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحـدد حرية أهـل الدين فى تعاليمهم واجتمـاعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعـدون بالالوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى أقطار الارض .

قال أحد رؤساء البزوتستانت ـ فى خطبة من خطبه التى ألقاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ـ مانصه مترجما : « اذا كان الدين المسيحى ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصـلاح (المذهب الرومانى) أو الكثلكة التى دخلهـا الاصـلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا أبداً » .

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بانه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فان وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف ـ ان شاء الله ـ بين الدين والعـلم ، بل بين المسيحية والاسلام .

عود الى سماحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجـــع الى ما مضى من الزمان ، واقف به وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والائمة من بني العباس ووزرائهم ــ والفقهاءوالمتكلمونوالمحدثون والائمة المجتهـــدون من حولهم ، والادباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل اقبــل على أخيه وضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحــدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحـــكيم ، وكل يرى فى صاحبه عونا على ما يشتغل هو به ــ وهكذا أدخــل به بيتا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء ســـواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى يأخــذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيـــد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للســائل « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشىء كان ألزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه » .

بل ارفع بصرى فاجـد الامام اباحنيفة أمام الامام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر الا

ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد ــ أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الاحاديث .

الخلفاء ائمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت امرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والائمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف الى أولئك المسلمين ، وانصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وانما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شىء من التخالف فى الآراء ، شأن الاحرار فى الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر أنه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك . ولا تتناول أحداً منهم يد بأذى ، الا اذا خرج عن نظام

الجماعة ، وطلب الاخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع لتذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

اشرنا فيما سبق الى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ـ تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه ـ وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، واخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن احداثه لتعظيم شأنه تقليدا لمن كان بين أيديهم من الامم المسيحية وغيرها . وأنشئوا ينسون ماضى الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الاغلب ضلالهم ، فى اثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لادنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الاسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه .

لا أكاد اخطىء القارىء اذا زعم ان المسلم انما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذا كانوا يقولون : هرتقه وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك - أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وان الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

ان المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وائمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجود واصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الامام الغزالى الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية - وهو أعلم الناس بالسنة واشدهم غيرة على الدين - : انه ضال مضل . وجاء على اثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمهـا واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة .

اهمال آثار السلف

أهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر فى اقــوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم فى أيديهم كتابا من كتب أبى الحسن الاشعرى ولا أبى منصور الماتريدى ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبى بكر الباقــلانى أو أبى اسحاق الاسفرايينى ، واذا بحثت عن كتب هــؤلاء الائمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس . منها تفسير الطبرى وتفسير أبى مسلم الاصفهانى وتفسير القرطبى وتفسير الجصاص وتفسير الغزالى وتفسير أبى بكر بن العربى وكثير غيرها وفيها من آراء أولئك الائمة ووجــــوه استنباط الحكم والاحكام ما لا غنى لطــالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى انها على دين ، وان لها فيه سلفا ، أن تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الازمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له فى أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع ان يتعلم البحث فى أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من

باطلها ، وانما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره فى بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وان لم يكن القول متفقا عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذى اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعى عنه ما يقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية فى سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقل جدا فى المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا فى بعض الصحارى ، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل ـ وحاجات الناس مانعة لهم من افناء أعمارهم فى عمل لا يسد من حاجتهم ـ واما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة فى أوربا أو فى المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شىء ، وان كان فيها شىء منه فهو مما لا يعد تعليما دينيا ينظر اليه ـ واما للفتور والخمود، اللذين نشآ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لا أنكروه واستغربوه وعدوه بدعة فى الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام فى بعض أشعاره الفارسية مخاطبا للنبى عليه الصلاة والسلام « ان الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لانكرته » .

فهذا الصنف من المسلمين ـ وهو معظمهم ـ قد أنكر

دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى لاعتقادبعض افراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم واهله ، فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام ـ دين محمد صلى الله عليه وسلم ـ دين القرآن ـ دين السنة الثابتة ـ دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الاولين ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول ـ والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، واما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم . ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه اثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين بين العقل والدين ، ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا

مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عـــدوه الذى يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب فى اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد فى ابادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن فى صنع آلات الهلاك ، مع الاخذ بالشبهة ، والاكتفاء فى الاعداد بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ولا فى أزمنة جهلهم ، ولـــكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمى الألفاظ الســـخيفة فى وجوه أهله ، قذفهم بشىء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب انك قد أيقنت بأن السبب فى هــذا الذى يسميه الاديب اضطهادا ــ نمـــا هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذى ينجح فى شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم والتبصر فيه ، للوقوف على اسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة .

الدعاة فى الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لاصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقيـــاد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثـــرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى الى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن الســـابع عشر وفيمـــا

بعد ذلك ؟ لا . انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع اربعة منهم — فما يزيد — في قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الاديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهاداً للعلم لاجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وأنما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن امثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين فى نظر المنصف .

المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما اشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الامم السابقة عليهم خصوصا أقرب الملل اليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسع في علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا انفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة فى الاديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت اهل القسم الاول ، ويحمى نفسه

ويحميهم من العدوان ؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ، وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت ان المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد . فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الامر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما انهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا الى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى الى أن يستريح، فينهض الى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والاخرى تنظر الى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون اغمضوا احدى العينين ، وأقذوا الاخرى بما هو أجنبى عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما الا بفتح ما اغمضوا ، وتطهير ما أقذوا .

الاصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعى ان دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع اننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الايام ؟ كل يقول : دينى ملتى ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الاخذ بأصول الدين الاسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكننى أن أقول له : ان الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمث فى الارض . وانما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى

روسيا . ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الارض من الشرق الى الغرب في وقت قريب فانتظر .

قد يقول القـــائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الاوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظـالمين من أهـل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طـال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهـل البصـيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟

وأقول له : ان حظ المسلمين لا يصح ان يكون اسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقـد اقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحـرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العـلمية ، الى ما فيه صـــلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، واطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا حجر الضب الـذى دخله من كان قبلهم الا أقـل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد، ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحـالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره . وما اظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صـــلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال ان المسلمين أشد افراطا فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات فى المعاملات، وما على طالب الحقيقة الا أن يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق . ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب ، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا .

ما على الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم أنهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على ما يبحثون

عنه ، لانهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد
وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١) .

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم وشرعت دولهم في تنفيذه هو اخراج
المسلمين من دينهم ولغتهم «العربية» بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم
والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية
والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطنى أو المالى ، وقد حدث فى الماضى
أن أكرهوا سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول الحكومة الفرنسـية
الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فانشأت لهم قانونا بربريا بعيدا
عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان فى الاحكام الزوجية والارث
وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة
البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة
الاسلامية ، حتى اذا ما تم لها اخراج البربر من الاسلام أكرهت العرب
على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد . وأما ايطالية الكاثوليكية الموالية للبابا
فقد حاولت حين احتلالها ليبيا استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب
وبرقة وجعل بقايا أطفالهم ايطاليين كاثوليكيين بالقوة القـاهرة تنكيلا
وتقتيلا !! « والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » وفى الجزائر وتونس فرضت
اللغة الفرنسية على الاهالى ، وحرمت التعليم باللغة العربية ، وحاربت
المدارس الاهلية الاسلامية ، واضطهدت علماء المسلمين حتى هاجر الكثيرون
من بلادهم الى مصر وسورية .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٤١٦ ـ ١٩٨٢

الترقيم الدولى ٩ ـ ٠١٦ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Macc. . R. 25 de Maroc. 990
Caixa Post[illegible] 6, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠ مليما :

سوريا ٥٥٠ ق.س آديس ابابا ٥٠٠ سنت لبنان ٥٥٠ ق.ل باريس ٨ فرنكات الاردن ٥٥٠ فلس لندن ٨٠ بنس الكويت ٦٠٠ فلس ايطاليا ١٢٠٠ ليرة العراق ٦٠٠ فلس سويسرا ٣ر٥ فرنكات السعودية ٧ ريال اثينا ٥٠ دراخمة السودان ٦٠٠ مليما فيينا ٣٥ شلن تونس ١٠٠٠ مليم فرانكفورت ٣ر٥ مارك المغرب ١٠٠٠ فرنك كوبنهاجن ١٠ كرونات الجزائر ١٠٠٠ سنتم استوكهولم ١٤ كرونة الخليج ٤٥٠ فلس كندا ٢٥٠ سنت غزة ٨٠ ليرة البرازيل ٣٥٠ كروز برو داكار ٤٠٠ فرنك لوس انجيلوس ٣٠٠ سنت لاجوس ٦٠ بنى استراليا ٣٠٠ سنتا اسمرة ٥٠٠ سنتا هولندا ٤ فلورين اليمن الشمالية ٥٠ بنى نيويورك ٢٥٠ سنت الصومال ٥٠ بنى .



هذا الكتاب

كان الاستاذ الامام محمد عبده شخصية بارزة فى عدة ميادين : العلم والتعليم والدين والسياسة ، وكانت له جولات فى كل هذه الميادين ، فدافع عن الاسلام ضد مهاجميه ، وسجل آراء سديدة فى طائفة من المسائل العامة التى تهم ابناء العروبة ، واصدر الكثير من الفتاوى الاسلامية لمن سألوه من ابناء الأقطار الاسلامية ، والقى العديد من الدروس الدينية والاجتماعية الرائعة ، وكتب فى مختلف الموضوعات فى الصحف ، واشترك فى الثورة العرابية ، ونفى من البلاد ، واشترك مع استاذه جمال الدين الافغانى فى اصدار مجلة « العروة الوثقى » فى باريس ، ولما عاد الى مصر ، تابع كفاحه فى كل الميادين .

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم لقراء سلسلة ك... على طائفة من البحوث المتعلقة بالدين الاسلامى و... الحديثة ، وبيان المعانى الانسانية والاهداف الاجتما... هذا الدين الحنيف وما يتفق مع الدين المسيحى من مثل... معه من معاملات بشرية لا تمس جوهر التوحيد وع... وتعالى ، كما يشتمل على دفاع الاستاذ الامام عن... التى ألصقها البعض به جهلا أو خطأ فى البحث والرأ...

٣٥ قرشا